غدا لن تمطر
(الجزء الثاني)

اسم الرواية : **غدا لن تمطر (الجزء الثاني) .**

اسم المؤلف: **بدرية أحمد.**

تدقيق لغوي: **دعاء فرج.**

تصميم الغلاف: **محمد دربالة.**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم.**

رقم الإيداع : 2021/2318

الترقيم الدولي: 9789778441098

جميع الحقوق محفوظة للناشر اى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

Email ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

بدرية أحمد

غدا لن تمطر
(الجزء الثاني)

إبهار
للنشر و التوزيع

"لا شيء سيخفف من الألم لو صار مزمنًا، مهما تناولت من مسكنات، مهما تظاهرت بأنه ليس موجودًا، سيظل أثره مزعجًا كعشرات من حبات الهيل في مشروبك الدافئ".

{غدا لن تمطر}

الجزء الثاني

(صدر الجزء الأول عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع)

إهداء إلى :

إلى أولئك الذين لم يروا فينا الأمل، لم يزرعوه ولو بكلمة، وكأننا لا نستحقه، اقتناعًا منهم أو حسدًا من عند أنفسهم... شكرًا لكم فيأسكم فينا كان الوقود، وها قد دفعتم بنا للإمام.

وإلى أولئك الذين دعوا لنا بالغيب حبًا فينا أو طيبة من قلوبهم، أعاد الله لكم دعواتكم بالمثل، وأدام بيننا الود غيبًا.

الفصل الأول

تلفتت نهلة حولها في توتر وقلق بالغين، فعلى الجهة الأخرى التي ترمي إليها عيون المحدقين اتجه بصرها، تجمدت ملامحها وحاولت السيطرة على انفعالاتها مؤقتًا، اقتربت من الملاءة البيضاء التي تغطي جسدًا تحتها، تنبعث منه الدماء اللزجة ملطخة كل الأنحاء، رفعت طرفها في أنفاس متلاحقة مسموعة صمت لها من حولها.

وتكشف الوجه الذي توقعته، لكنها لم تستطع أن تتحامل على قدميها؛ فخارت قواها على أقرب مقعد إليها.

فتحت هذه الملاءة كان يركد جثة هامدة، والدماء تحيط به بغزارة، وعلى رقبته تلك...

تلك...

تلك الابتسامة الأخيرة التي أخبرها أنها ستنال من الجميع!

قبلها ب٦ أشهر...

أغمضت نهلة عينيها في سكون، وعادت لتفتحهما في بطء، لعل ما عايشته كان وهمًا أو كابوسًا على وشك الانتهاء والمضي.

شردت في أمواج البحر أمامها، عقلها أصبح مضطربًا، هناك خواء بداخلها، كل شيء قد مات، اللهم إلا ذلك الألم الذي يلازمها صباحًا ومساءً حتى في أحلامها، وخزه مميت كسم الأفاعي، يسري في أوردتها وينسلخ من لحمها ببطء، كسكين حمى على النار ثم علق في ثوب من الصوف.

لا شيء يعبث بداخلها سوى الهواء، كتمثال مفرغ تركوه قائمًا وانفضوا.

لا تدري هل رحلت أمها فعلًا ورحل خالد أم أن كل ما تحياه هو وهما؟ ولم لا تستطيع نسيانهما الآن حتى يسكن ذلك الألم؟

عندما كانا موجودين خانها عقلها وحذفهما، والآن وقد رحلا يأبى خائنها النسيان.

ربما هي في وهم قد خلقه عقلها المريض واختبرها به؟ أم أنه اختبار أقوى من عند الله؟

لم تعد تدري...

حتى عيناها خذلتاها وتأبى المطر، أصبحت متحجرة من بعدهما، نضب ماؤها فاستحال الغيث.

"نهلة... نهلة".

قاطعها من أفكارها صوت سعيد، الذي تنبه لشرودها، الذي أصبح عدوه اللدود في الآونة الأخيرة.

سعيد الذي يبذل قصارى جهده لإخراج نهلة من وحدتها وصمتها الدائم.

نهلة... التي أنطفأ بريقها وخبت لهفتها للحياة، وتحول شغفها إلى استسلام.

"نهلة حبيبتي، إنتي عارفة أني عاملك مفاجأة حلوة أوي، وها تعجبك أن شاء الله لما نرجع إسكندرية".

ابتسمت نهلة في صعوبة وأومأت برأسها، ثم عادت لشرودها.

وأية هدية تلك التي قد تفرح قلبًا ميتًا وروحًا تنتظر أمر رحيلها، لتزيح ألمًا استقر بداخلها؟

"أين ذهب اصطناعك يا نهلة؟ أقنعتك قد تهاوت، وكأن لاصقها لم يعد متماسكًا كما كان، أصبح وجهك الآن فاضحًا عما يكمن بداخلك، مشاعرك ترى بسهولة وكأن... وكأن الحقيقة صارت أسهل من الخداع بمرها ولاذعتها وأشواكها، لم تعُدي محنكة كما الماضي".

نهضت من مكانها فجأة، وكأنها قد أصابت شيئًا من النداهة، تمشت بمحاذاة الشاطئ، عيناها الجذابة صارت تجويفًا ليس إلا، جفونها مثقلة تنفتح وتنغلق في بطء كامرأة كهلة قد تخطت المئة من عمرها.

بدأت الشمس في الإدبار، وحل الغروب على المكان، وقفت أمام الشمس في سكون مهيب، كالتمثال لا يتحرك منها سوى فستانها المتطاير، الذي تعبث به الرياح والأمواج.

تمنت لو بكت، لو بقي لها من مطرها القديم شيء... شيء يخفف من تنهيداتها الحارة وألمها المزمن.

عيناها المتحجرة العنيدة أبت، وكأنها قد انفصلت بكيانها عن باقي جسدها.

من بعد خالد لن تهدر الدموع... لن تهدر أبدًا، هكذا هو وعدها.

"أين أمي من كل ذلك، أه لو كانت هنا، لو تأتي حتى دونما الكلام، رائحتها فقط كفيلة بهروب المشكلات وإحلال السلام، جلستها الهادئة ونظرتها الحانية كفيلة برفع معنوياتي وطمأنينتي".

وضعت يدها على قلبها لم يعد يخفق كما المعتاد في حزنها، لا ردة فعل منه على أوجاعها، ينبض لتحيا فقط...

كل ما يحيط بها الآن هو الصمت...

الصمت القاتل الذي لم تختبره من قبل؟!

ذلك الذي تسمع فيه أصوات الطبيعة، والكون وحتى الرياح... كل شيء ما عدا صوتك، وكأنك جسد طافٍ على صفح الماء دون روح... لا تشعر بطيور النورس، وهي تنقر في أصابع قدميك، لا تحس بأشعة الشمس

الحارقة في عينيك... لا توخز جلدك كما الماضي، جسد فقط يمضي بلا وجهة، تأخذه موجة وتطوح به أخرى.

لكنك للأسف جسدًا يمتلك ذاكرة تمر أمامه كشريط الفيديو بكل ما تحتويه من سوء.

***

"عزيزتي ندى:

بعد التحية...

أكتب لكِ وأنا أعلم أنكِ ستتألمين لقراءة خطابي هذا، وأعلم كم تكنين لي في داخلك من عتاب أليم.

أعلم أنني سأغدو في عينيكِ قليلة الشأن، وضيعة الأصل بعد خطابي هذا.

لكن لي العذر صدقًا فيما أفعله، فبعد أمي وخالد ما عدت أريد حبًا ولا قربًا ولا صداقات.

تلك العلاقات التي لا تترك إلا ألمًا، ما عدت أريدها بعد، فأنتم ترحلون وحدكم دون تمهيد، تاركين قلبي خلفكم ينازع ما بين الحياة الخبيثة التي تتشبث به، وما بين الموت الذي يسري في أوردته متمثلًا في آلامي.

عزيزتي ندى أنا أعاني سكرات الموت يوميًا بل في كل دقيقة ولا أموت.

عقلي يأبى النسيان، وقلبي يأبى المضي قدمًا، وأنا بين الاثنين أحتضر بلا موت.

فعذرًا أن رأيت مني ما لا يسرك، وما لم تتوقعي حدوثه، فتهربي منك لم يكن إلا بعض السلام داخلي، رغم اشتياقي لكِ وللبكاء في أحضانك، إلا أن هذا أفضل لي ولكِ.

تمنيت يا صديقتي في الماضي أن تجف دموعي، فكثيرًا ما كانت تسقط أمام من لا يستحقون رؤيتها، عرتني من قوتي أمامهم فتلذذوا بهطولها، فبغضتها وتمنيت زوالها، وها هي قد تركتني للأبد، جفت دموعي يا ندى، جف المطر الذي كان يروح عني وأستند عليه.

سامحيني يا صديقتي العزيزة المخلصة فيما سأقوله:

لا أريد صداقتك بعد الآن... لا قربًا ولا حبًا ولا حتى سؤالًا، امحيني رجاءً من ذاكرتك، ودعيني أتنفس ما بقي لي من عدد أنفاسي، دون أن ألمح وجعك أو ألمك لحالي.

رأيتك في المستشفى، وفي البيت كيف تتألمين لأجلي بلا صوت، وكأنكِ صرتِ جسدًا بلا روح.

وأنا لا أحتمل تألمك علي، ولن أحتمل رحيلك يومًا لا قدر الله أن يكون قبلي، ستكونين حينها جحيمي، فليس من العدل أن أشاهد رحيلكم دوني، وأنا عاجزة أن أمضي مثلكم.

سامحيني يا توأما لروحي لن أنساه يومًا.

المعذبة

نهلة.

هكذا أفضل!

ما فائدة القرب أن كان خداعًا، يزيد الروح ويسمو بها ثم في ثوانٍ تتهاوى، تظن أنك تملك السماوات لمجرد أنك رسمتها، وإنت في الحقيقة لا تملك سوى لونها في لوحتك.

في لحظة ظنت نهلة أن الحياة تبتسم لها، بل تقهقه معها وتتواضع لحزنها... لكنه كان وهمًا ما ظنته، فالحياة لا تبتسم أبدًا لأنها بكل بساطة لا تملك قلبًا ولا روح، وصمتها لا ينذر إلا بقدوم العواصف.

"نهلة، نهلة".

انتزعها من أفكارها صوت أنثوي، فرفعت وجهها عاليًا لترى من أين يأتي؟

كانت هناك الكثير من العيون تحدق فيها في دهشة وإشفاق، نظرت لمصدر الصوت الذي تكلم مرة أخرى.

"نهلة، أيه رأيك في اللي قاله سعيد"، إنها إيمان الجالسة أمامها تنتظر ردها، وتعلو وجهها ابتسامة كبيرة.

تلفتت نهلة تبحث عن سعيد، ففوجئت به على يسارها، فالجميع جالسين على مائدة الطعام، تمتمت لنفسها في خفوت:

"من أتى بي هنا؟ ألم أكن في غرفتي منذ قليل، لا أتذكر خروجي منها إطلاقا".

رفعت رأسها مرة أخرى تتفحصهم من جديد، فأمامها يجلس كل من إيمان وهشام وسلمى ومعتز ونهلة الصغيرة، وعلى يسارها سعيد ودانا فمن إذا يجلس على يمينها، وتحس بأنفاسه القوية على عنقها، استدارت في بطء ثم شهقت شهقة قوية وتراجعت عن كرسيها في فزع وعلى وجهها ارتسمت كل ملامح الدهشة والاستنكار.

فعلى يمينها كان يجلس خالد!

***

أفاقت نهلة من نومها واعتدلت جالسة على السرير، فتحت عيناها بصعوبة، لتجد سلمى وإيمان وسعيد في الغرفة، وقد ارتسم على وجوههم القلق.

تيقنت نهلة أنها قد سقطت فاقدة للوعي، طالما الجميع هكذا على أهبة الاستعداد ينتظرون إفاقتها.

ثم تذكرت فجأة شيئًا ما، فخرجت مهرولة من الغرفة، وسعيد في إثرها هاتفا باسمها، وقفت أمام المائدة تتفحص الكراسي ثم استدارت ذاهبة للصالون، اقتحمته دون إذن فوجدت أمامها هشام ومعتز اللذان ما أن رأوها حتى هبَّا واقفين في دهشة.

خرجت مسرعة تتفحص باقي الغرف، لم يكن هناك من أحد سوى الخدم في المطبخ، ونهلة الصغيرة ودانا اللتين تلهوان في حديقة الفيلا.

تراخت أعصاب وجهها المشدودة، التي كانت تستعد ربما لمفاجأة لم يكن لها وجود إلا في خيالها.

عادت تجر أذيال الخيبة، ومشاعرها على وشك الانفجار مجددًا، وعيناها تأبى الجود عليها بما تختزنه.

عاونها سعيد على الولوج لغرفتها مرة أخرى، وتأملها في حزن، عيناه تحمل حسرة الدنيا وما فيها على امرأة هزت كيانه وملكت لبه.

أتلك نهلة التي هزمت جبروته يومًا ما؟ وكأنها قد فارقت جسدها إلى غير رجعة، فمن هي أمامه الآن شبح لا تعي شيئا مما حولها ولا تدري الليل من النهار!

عاونها على رفع غطاء السرير وتأكد من تدفئتها جيدًا، اقترب من وجهها رآها مفتحة العينين، ساهمة في اللاشيء أمامها متحجرة الملامح.

صحب معه أختيها وأغلق عليها الباب، تركها لظلمة أفكارها تعانق ظلمة ليلها في انتشاء، هناك أصوات في عقلها تصرخ باستمرار.

"اهربي يا نهلة، فري مجددًا، خالد ما زال حيًا، أمي ماتت، لا بل هي حية...".

"لاااااااااا"

صرخت نهلة بأعلى صوتها وظل جسدها يرتجف، نظرت حولها الظلام مازال يحيط بها في كل الغرفة، ربما لم يسمعها أحد ممن في البيت، أو ربما صرختها لم تتجاوز عقلها بعد... عقلها ذلك الذي ذهب من داخل جمجمتها، وترك فراغًا يتحكم في أجزاء جسدها الضعيف.

استكانت من جديد على وسادتها، وضعت يدها على ذراعها تربت على نفسها في هدوء متمتمة:

"ليس هناك ما يخيف يا نهلة، كل شيء سيصبح على ما يرام".

***

أشرقت شمس الثامن من شهر أبريل، حاملة في جعبتها ما يطرد عن الناس اكتئاب شهور الشتاء والخريف.

دلفت الخادمة إلى غرفة نهلة، وأزاحت الستائر السميكة عن نوافذها، في محاولة منها لإدخال النور لظلامها شبه الدائم، الذي كانت تقبع فيه طوال شهور البرد الماضية.

استيقظت نهلة على دفعة الضوء والدفء القوية، كانت مرهقة، وذابلة، أصاب الوهن جسدها وبلغ مبلغه، اعتدلت على فراشها، حينما لمحت دانا قادمة من الباب المفتوح على مصراعيه، قفزت الصغيرة على فراشها فرحة باليوم المشمس الملائم للعب والخروج.

تأملتها في صمت، كبرت دانا وكأن ما مضى لم يكن إلا سنين أخذت معها أكثر مما أعطت.

تناهى إلى مسمعها صوت حذاء بخطوات رصينة، يأتي من الممر الطويل، الذي يصل الغرفات بعضها ببعض، تعالى الصوت مع اقتراب الشخص الذي ظهر وجهه جليا.

"صباح الخير يا نهلة"

ابتسم سعيد عندما لمح دانا الرابضة تحت الفراش، صانعة ما يشبه القبة المنتفخة، فقال مازحا:

"وصباح الخير أكيد يا دانا هانم".

قفزت دانا من مكانها ضاحكة، عندما اقترب سعيد منها، وكشف وكرها السري، وبدأ في مداعبتها.

راقبتهما نهلة في شرود لاحظه سعيد، فطلب من دانا الخروج قليلًا إلى حديقة الڤيلا، ثم جلس على طرف الفراش مواجهًا نهلة في نبرة غضب مكتومة:

"نهلة، أيه اللي إنتي عملتيه ده؟"

نظرت له نهلة في هدوء شديد دون رد، فأكمل كلامه في عتاب:

"يعني أيه تقدمي ال CV بتاعتك في شركة حقيرة مرتبها ميتعداش ال٣ قروش، ومن غير ما تناقشيني في ده، ليه يا نهلة ناقصك أيه؟"

أدارت نهلة عينيها إليه، ورددت في شبه حياة:

"ناقصني نهلة القديمة يا سعيد".

أمسك بيدها البضة بين يديه، ضاغطًا عليها في رفق ومحاولًا السيطرة على أعصابه:

"نهلة حبيبتي، لو عايزة تشتغلي فعلًا وزهقتي من قعدة البيت شركاتي تحت أمرك، اختاري بس الوظيفة اللي عايزاها، وأنا أخلقهالك تحت عيني وسيطرتي، مش بالطريقة اللي عملتيها دي، إنتي عارفة لولا صاحب

الشركة نفسه كلمني وبلغني مكنتش ها أصدق إنك تعملي كده، من غير ما تتكلمي معايا، يعني أيه حرم سعيد بك الغريب تنزل تتمرمط وسط موظفين درجة تالتة؟"

"أنا عايزة وظيفة بعيد عن عينك وسيطرتك"

قالتها نهلة في جمود زاد من توتر سعيد، الذي حملق في وجهها قائلًا:

"إنتي بتقولي أيه يا نهلة، إنتي أيه اللي حصل لك، إنتي عارفة أني ما أقصدش أتحكم فيكي، بس وظيفة زي دي متناسبش وضعك ولا وضعي، إنتي نهلة سعيد الغريب، سيدة المجتمع وواجهة ليَّا ولبنتك".

أشاح بنظراته قليلًا ثم أمسك بيدها من جديد:

"نهلة، فلوسي وهيمنتي وسيطرتي اللي بتقولي عليهم إنتي عارفة كويس أنهم بإشارة منك يكونوا تحت رجليك، سعيد اللي اتجوزتيه غير سعيد اللي ملكه حبك ومستني بس تدي له فرصة تانية يرجع الابتسامة لعينيكي".

أشاحت نهلة بنظراتها بعيدًا عن وجهه، فأدار وجهها بيده إليه وقال في حب:

"أنا مش قولت لك أني عامل لك مفاجأة جميلة لما نرجع إسكندرية، إنتي عارفة أني فتحت لاين جديد في شركة الملابس الخاصة بيَّا للمحجبات، وها أخليكي يا ستي المديرة بتاعته والديزاينر كمان لو تحبي".

نظرت له والشك مازال يعبث بداخلها، ففي نبرته دائمًا ما لا يريحها:

"أنا آسفة يا سعيد، بس أنا مصرة على كلامي، مش ها أشتغل في أي شركة تبعك، أنا ها أنزل الوظيفة اللي أنا اخترتها وياريت تتفهم موقفي ده".

نظر لها سعيد مطولًا في محاولة لتمالك أعصابه ثم غادر في غضب.

انتظرت قليلًا لتتأكد من رحيله، ثم أخرجت حاسبها الآلي الصغير، وضربت على أزراره تفتح الإيميل الخاص بها، وتقرأ مجددًا الرسالة التي وصلتها منذ بضعة أيام من الرائد محمد يسري التحري الخاص الذي أوكلته منذ خمسة شهور، التي على إثرها تحاول الخروج من سيطرة سعيد.

"القصة ليست كما حكيت لك إطلاقا، دققي في الصور والمستندات المرفقة، إنتي في جحر الثعابين!"

فليكن يا سعيد، لن أتخلى عن حلم خروجي من هذا السجن الذي أحيا فيه... أبدًا.

***

أحست نهلة بالملل، وهي تنتظر مرور سيارة أجرة شاغرة، لتستقلها إلى البيت بعد رفضها تمامًا مرافقة سائقها الخاص لها، فأسرعت الخطى في الاتجاه المغاير لتتجول على قدميها مستفادة بالوقت المهدر في الانتظار.

قادتها قدماها وهي شاردة إلى أحد الشوارع الواسعة، التي توقفت نهلة في منتصفه، تتأمل ذلك المبنى المميز الذي علته يافطة ضخمة، قد كتب عليها بخط كبير (كلية التجارة).

تسمرت قليلًا في مكانها وكأن أحدًا ما قد ضربها على رأسها، فقد انسابت ذكريات الجامعة بكل ما تحويه في عقلها، موت دانا، ظهور سعيد في حياتها، صدمتها العاطفية، وندى... رفيقة الدرب.

لم يحتمل عقلها الضغط فدارت الدنيا أمام عينيها وسقطت على الأرض.

فتحت عيناها في صعوبة لترى وجوهًا كثيرة حولها، أسندها أحدهم لترتشف بعضًا من الماء، لكنها سرعان ما اختنقت به في حلقها، عندما تبينت وجه الشخص الذي يسندها بذراعه.

أحس بصدمتها فقال في سرعة مغلفة بالقلق:

"نهلة، إنتي كويسة".

لم تستطع نهلة الرد وإن حاولت الهروب بنظراتها منه، فهو آخر وجه تتوقع رؤيته على الإطلاق، وكأن قائمتها تجدد نفسها كل حين لكي لا تنسى.

مد يده لمساعدتها لكنها تجاهلته في برود، وأسرعت تعاون نفسها على النهوض، أمسكت بحقيبتها وكانت على وشك الرحيل حين أمسك بمعصمها قائلًا:

"نهلة، أرجوكِ استني؟!".

رفعت عينيها تواجهه في صرامة، في حين فوجئت باستسلام نظراته لها، نظراته التي تجولت في وجهها بكل جرأة.

سحبت ذراعها من بين يديه، واستدارت لترحل في سرعة، بينما استمر هو في الصراخ باسمها...

شهقت نهلة وهي تحاول المرور من حلمها للواقع، اعتدلت على فراشها، وانحنت تلتقط كوب الماء المجاور لها ترتشف قطراته في نهم، وهي تحدث نفسها:

"أيه اللي جابه لأحلامي بعد السنين دي، أيه اللي فكرني به دلوقتي؟".

جلست في هدوء تفكر في الرسالة الثانية التي وصلت لها أمس.

"ليس كل شيء كما يبدو، هناك ما هو مستتر بالفعل، كما أن هناك تلاعب في الأسماء، انظري في الصور جيدًا، حرري نفسك من قبضتهم ببطء ولا تقتنعي بأكاذيبهم".

أمسكت برأسها تعصرها وهي تحاول التفكير، أخرجت قلمًا وورقة، وبدأت ترسم خانات ودوائر بها كل المعطيات والألغاز في الرسائل التي وردتها.

رددت في ألم وقد توصلت لبعض الأشياء:

"قائمتي الحمقاء لن تتركني بخير أبدًا، ستنهيني يومًا أو أنهيها!"

***

"لم أظن أن العالم قد ينقلب من أجلي، ربما كنت في نظر نفسي أقل بكثير من أن يلاحظني أحد، لم يتركوني أمضي في سلام واستكثروا علي الهدوء، ألم يكن الاجتماع بأحبتي أسهل من ذرف كل تلك الدموع... والدماء؟!"

***

فتح زاهد الباب ليتفاجأ بنهلة ماثلة أمامه، رحب بها وانزاح جانبا؛ لتدلف للداخل حينما لم يستطع كبت فضوله فتحدث في عدم لباقة:

"خير يا نهلة، أيه سبب تشريفك ليَّا بالزيارة دي؟"

"جاية أتكلم معاك في موضوع، تقدر تقول أني ملقتش حد غيرك أتكلم معاه، كمان أنا واثقة أنك هتكون أكتر حد صريح معايا".

لم تلق منه ردًا إلا الصمت فأطلقت زفرة قصيرة ثم أكملت:

"ها أسألك سؤال الأول لو تسمح، ممكن أعرف إنت ليه بتكرهني؟" سألته في حزن.

ردد زاهد في دهشة:

"بكرهك! أنا عمري يا بنتي ما كرهتك لا إنتي ولا إخواتك، هو أنا أه مش أبوكي الحقيقي، بس ربيتك زي بناتي اللي من صلبي، ما تستغربيش خالك سعد كلمني، وقالي إنك عرفتي موضوع جواز أمك وأبوكي الحقيقي".

نظرت له نهلة في استغراب وعدم تصديق متمتمة:

"رمتنا إحنا وأمي واستبدلتنا ببيت تاني، وأولاد تانيين وبيعتني لسعيد وعايرتني بطلاقي، وساومت على حياة أمي، وكنت عايز ترجعني لسعيد في عز جبروته، وتقولي مش بكرهك يا بنتي؟!"

ابتلعت مرارتها في حلقها الجاف حينما لم تسعفها الكلمات.

"خلصتي كلامك".

قالها زاهد في برود ثم ما لبث أن قام وجذب كرسيًا ووضعه أمامها:

"إنتي فاكرة أني انفصلت عن أمك، عشان ما جبتليش الولد فعلًا، تبقي عبيطة، أنا معرفتش أكمل مع أمك ومكنتش عارف أعيش أساسًا معاها، عارفة ليه؟ عشان كل ما أبص لها أفتكر قهري وفقري وذلي، أفتكر جبروت

خالك سعد وأخواته، إنتي فاكرة أني كنت بحب أمك أو أرضى أتجوز واحدة حامل من واحد بتحبه وكانت مراته، لولا بس الفقر، إنتي متعرفيش خالك عمل فيَّا أيه، عشان أرضى أتجوزها، متعرفيش خالك قادر يعمل أيه لو حد عصاه، اتخيلي كل القذارة اللي في دماغك، ها توصلك في الآخر لسعد الجرار".

التقط أنفاسه ثم أكمل:

"ساوموني على حياة أمي ومرضها، وقبلت القرشين عشان ألحق أعملها عمليتها، واتجوزت أمك بالغصب بس أمي اللي مصبرتش وماتت، ماتت عشان مكنش معايا اللي يتقل جيبي ويسند ضهري، وحلفت من يومها لأكون عبد للفلوس وخدام للقرش، ورضيت أعيش مع أمك، وأتحمل ذل خالك كل يوم، أطاطي رأسي كل ما يرمي لي قرشين وأبوس الأيادي، أنا عارف أن أمك غلبانة، ومش زيهم بس هي عمرها ما حبتني ولا شافتني أستحقها، أمك قلبها فضل مع أبوكي".

تبدلت ملامحه وانتصب ظهره، وكأنه يتحول لشخص آخر أكثر ضراوة ثم أكمل:

"انفصالي عن أمك من كرهي ليهم، رميت لهم أختهم مبقتش تلزمني، وأخدت قرشين من خالك قصاد أني مطلقش عشان الواجهة الاجتماعية، ها تقولي بيعتك لسعيد، اه بيعتك بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، أنا أدرى بمصلحتك، والمفروض تشكريني دلوقتي على الخير اللي إنتي فيه، بقيتي سيدة مجتمع، جوزك راجل أعمال تحلم به أي ست، عنده مصانع

وشركات بإشارة منك سعيد يخليها تحت رجليكي، بيعتك لأنك أكتر أخواتك حظ وجمال، ياريت كانت واحدة فيهم زيك أو حتى ربع بختك، ساومت على حياة أمك عشان عرفت أنها هتموت، وكلنا هنموت يبقى ليه مستغلش الفرصة، قبل ما تلومي عليَّا لومي على الزمن والأيام اللي خلتني كده، أنا كنت راجل يا بنتي مقبلش مليم غير من عرقي... كنت، ومنهم لله اللي مسخوني كده، إنتي فاكرة خالك وأخواته دول رجالة وعليهم القيمة؟ القرش بس اللي عمل لهم تمن في سوق الرجالة، القرش بس اللي بيتحكم في الناس، أمي ماتت عشان مكنش معايا، وأمك داقت من نفس الكأس، لو عايزة تعيشي دور الضحية، روحي عيشيه مع الزمن، وخليه يدوس عليكي زي ما داس على غيرك، أنا كنت زيك أهبل وبريالة وفاكر أني بني أدم، بس اتعلمت تحت رجل خالك، وفي بيته اللي متعلمتوش من الحياة كلها، إنت متعرفيش حاجة عنهم، متعرفيش أي حاجة".

هدأ قليلًا حينما قاطعته نهلة بهدوء:

"لو بتحبني فعلًا زي ما بتقول... ساعدني".

"خير يا بنت سعاد، ارمي اللي في جوفك".

"محتاجة مساعدتك تجاوبني على كام سؤال، وبكل صراحة وصدقني اللي عاوزه هتاخده".

"مش عايز منك حاجة يا بنت سعاد، ربنا يخليه سعيد باشا مش منقص بيتي حاجة، كفى ووفى من يوم رجوعك له، إنتي عارفة أنه مدخل ولادي مدارس خاصة ومتكفل بمصاريفهم، بصي يا نهلة... سعيد هو نفسه

الجرار بس الفرق بين الاتنين أن سعيد لسه عنده قلب يحب ويتحب، أما خالك الله يلعنه ميعرفش غير أنه يتعبد زي فرعون".

"أنا محتاجة أعرف كل حاجة بصراحة ووضوح، مين اللي رشح لك وظيفتي في المول يوم ما قولت لي عليها، مين سبب دخولي حياة سعيد؟ "

لوهلة لمحت نهلة على وجهه التردد ثم عاد لاتِّزانه مجددًا:

"داخلة إنتي عليَّا على الحامي يا بنت سعاد، اللي فاكرة أنه كان واحد ابن ح... لال شاف إعلان وظايف وقالي عليه".

ابتسمت نهلة ابتسامة ساخرة، مما دعاه للغضب فهي تعرف جيدًا أن الكذب ليس من صفاته.

"مش مصدقاني يا بنت سعاد، عايزاني أحلف لك على المصحف عشان أدخل النار؟! "

"ما تقلقش، أنا معنديش أي نية وحشة لسعيد، معركتي دلوقتي مش معاه، أنا معركتي مع سعد الجرار، وجاية النهارده أتأكد من اللي في دماغي، فمتخافش على سعيد بيه... هيفضل بيتك مفتوح على حسه".

اهتزت نظرات زاهد قليلًا ثم قال مبتسمًا:

"ذكية يا بنت سعاد طول عمرك... ويمكن دي مشكلتك، قوليلي... ناوية على أيه بقى، هتنتقمي من خالك يعني؟".

عادت نهلة بظهرها للوراء وقالت في هدوء:

"الانتقام ده كان من زمان، راح وقته وطعمه خلاص، المنتقم أعمى ولما بيفوق بيكتشف أنه خسر كل حاجة... أنا مش هنتقم أنا هكشف ورقه وأصفي حسابات وبس".

قهقه زاهد عاليًا وقال في سخرية:

"إنتي يا بنت سعاد هتهزي عرش الجرار، متأكدة!".

تبدلت ملامحه للجدية ثم أكمل:

"صدقيني لعبتك مع سعد الجرار مش هتنولي منها غير الأذية أو الموت، ومش ليكي وبس ده لأي حد قابلك حتى بالصدفة في الشارع، أنا أتمنى ربنا يديني طولة العمر وأشوفه مذلول قبل ما أموت... حتى لو مذلول لأي حد مش ليا، بس تفتكري أنه اللي مقدرش عليه مخلوق هتقدري عليه إنتي يا بنت سعاد".

ابتسمت نهلة في ثقة وهو تخرج من جيب سترتها هاتفها المحمول، لمست شاشته في سرعة ثم توقفت عند صورة ما، وضغطت على تكبيرها ثم أدارت الهاتف إليه ليراها.

"أيه رأيك في دي؟".

اتسعت عينا زاهد وسرت في جسده قشعريرة مخيفة، وهو يتفحص الصورة رغم معرفته لها من أول وهلة.

"ها، لسه مستقل بيا؟"

عاد بظهره للوراء وقال في تردد متلعثمًا:

"وجيالي أنا ليه وأنا مالي".

نظرت إلى داخل عينيه في تفحص:

"قالوا لي إنك عندك السر كله".

"إنتي بتقولي أيه؟ مين دول اللي قالولك؟".

بدا صوته مرتجفًا والانفعال يغزو وجهه في وضوح، فانتهزت ضعفه النفسي وسألته:

"ها، هتساعدني ولا؟ كده كده هوصل للي إنت مخبيه، اللي قدر يوصلني للصورة دي يقدر يوصلني لسرها".

"طيب رسيني على الحوار، هو الجرار قالك أيه بالظبط؟ أن أبوكي كان مدرس، وأنه طمعان في أموال جدك وأمك؟".

أجابته بهزة من برأسها مما حدا بفمه للأعوجاج متبرمًا ثم قال في خفوت مصاحب بخوف:

"امسكي أعصابك لأنك هتسمعي رواية تانية للي حصل، يمكن تفهمي منها قوة وجبروت خالك وأصلة لفين، وتبطلي الهبل اللي بتجري وراه ده، والظاهر كده أنه فيه طرف تاني هو كمان مخبول وبيحاول يساعدك".

نهض من مكانه وأغلق عليهما باب الصالون، وبحركة لا إرادية تلفت حوله ثم زفر في قوة قائلًا:

"اللي هقولهولك ده لو ما تحكمتيش في ردة فعلك؛ بعده هتحكمي على رقبتنا كلنا بالابتسامة الأخيرة يا بنت سعاد".

وانطلق زاهد يروي لها ما لم تتخيله قط في أسوأ كوابيسها.

"الحياة أصبحت كالقط وإنتي ككرة الفرو يا نهلة، ستتلاعب بك فوق قدرات عقلك المحدودة... لن يهنأ لها بال حتى تفقدي صوابك أو تغادريها".

***

الآن أدركت عمق غلك يا زاهد من سعد الجرار، وإن لم يقارن بغلي أنا والنيران التي تستعر في صدري.

كل ما يجول في عقلي الآن أن أذهب إليه، وأنحره في عقر داره، ولكنني أضعف من أن أنحر دجاجة، فكيف ستتلوث يدي بدمه القذر، وهو لم يكن إلا مجرمًا أبتلانا الله به في صلة القرابة.

رواية زاهد مازالت ترن في أذني حتى أنني لم أعد أحتمل طنينها المزعج.

"أبوكي كان ظابط صغير، ولسه جديد في الداخلية منير كامل الأسيوطي... خالك كانت بتدور حواليه شبهات مخدرات وبيع أعضاء وغسيل أموال، وكل اللي يحبه قلبك... بس مفيش دليل واحد يوحد ربنا مثبت عليه... أبوكي حب أنه يتقل رجله في الداخلية ويترقى بسرعة، وطبعًا دي بالنسباله قضية لوز، هتشرف ملفه سنين قدام، كان دخوله للفيلا مش سهل فانتحل شخصية مدرس، وبدأ يدرس لزميلة أمك اللي شكرت في أمانته وشرحه، وطبعًا بعدها أخد التأشيرة لدخوله الفيلا والباقي مفهوم... حبه لأمك مكنش في الخطة، بس جوازه منها كان متخطط له... خالك كشفه من أول لحظة دخل فيها الفيلا، وجاب معلوماته كلها، وبقى يرمي له طعم من وقت

للتاني، عشان يجيب رجله في الخية... خالك أذكى مما تتخيلي، بس ذكاؤه معرفش يتوقع أن جدك وافق على الجوازة وكمان كتب أملاك تخصه بأسم أمك وأبوكي، ولأنه كان عارف أد أيه خالك قذر، وفي نفس الوقت جدك بهيمنته مكنش أد سعد الجرار، ولا يجرؤ يقف قصاده، فوافق على الجوازة وبيع الممتلكات بس في السر... جدك مات وأبوكي حس أن الجرار كشفه، فبدأ يطالب بدخوله للشركات كشريك في حقه وحق أمك، وعشان تكتمل خطته أن يكون جوة الأعمال زي ما بقى جوة الفيلا والعيلة بشكل رسمي... وخالك أتفاجأ لأول مرة بأوراق العقود اللي ظهرت قدامه... أبوكي استفز الشيطان اللي جوة خالك...".

هز رأسه في خوف قائلًا:

"فكرتيني بالقرف والذكريات الهباب ليه يا بنت سعاد".

تنهد في تحسر ثم استطرد:

"أبوكي كان له أخت جميلة في العشرينات، بس كانت بتعاني من مشكلات نفسية، وللأسف خالك استغل النقطة دي في صالحه... عمري ما هنسى اليوم اللي طلب مني فيه أسلم الطرد، اللي في شنطة العربية للرجالة في مصنع البلاط المهجور".

هز رأسه في إيجاب:

"أيوة، مصنع البلاط اللي مبعوت لك صورته على الموبايل، واللي معناه الوحيد أن فيه طرف رابع عنده خبر بالحكاية، دي ويمكن باللي أكتر منها".

حاول تبليل شفتيه الجافتين بلعابه الأكثر جفافًا في محاولة باءت منه بالفشل:

"المهم، سلمت الطرد وأنا عارف أيه اللي جواه؛ لأنها مش أول مرة أسلم طرود زي دي، لحساب الجرار بس ممشتش المرة دي، فيه حاجة جوايا قالت لي أستنى، يمكن فضولي ويمكن عشان البنت دي شدني براءتها ووشها الملاك، مش عارف ليه، بس استخبيت ورا الأزاز ووقفت أتفرج".

وجهه وهو يحكي كان يصرخ بالألم، لم يكن هذا قط هو زاهد الماثل أمامها، إنما شخص آخر تنازع مشاعره ما بين الألم والغضب، كان جسده يرتعش من الانفعال.

"بنت جميلة أد أختك إيمان أتفرمت في ماكينة البلاط... قدام عيني، أول مرة أعرف الطرود اللي بتوصل هنا بيحصل لها أيه".

"ما يتحكاش صراخها أو خوفها، ما تتوصفش روحها وهي بتعافر لآخر حتة في جسمها بتتفرم، ما شوفتيش ولا ها تشوفي منظر في حياتك زي ده، رعشة رجليها الأخيرة ونفضة جسمها".

"خالك شافني من الأول وسابني اتفرج للنهاية، رجالته ما اتهزوش وكأنهم متعودين ودي مش أول مرة، ناداني وهو مديني ضهره، ومن خوفي عملتها على روحي، ودخلت لجوه بترعش وشوفت آثار الدم وريحته، مكنش محتاج يهددني، وشي كان كفيل يبان عليه أني عمري ما هنطق لمخلوق أو أعصي أمره أبدًا".

"خالك كان عارف أنه مش هيقدر يؤذي ظابط في الداخلية بشكل مباشر، مهما بلغت وساخته ومكانته، عشان كده لعب على المقربين منه ومن غير أي غلطة أو خربشة اتهام تتمد له".

"أبوكي اللي ما اتحملش اختفاء أخته الوحيدة، وانهار من بعدها وخاف أن عمك يتمد له الأذى، ركب عربيته وجه الفيلا... عمري ما هنسى اليوم ده كمان، رفع مسدسه في وش خالك بس الطلقة الأولى جت في مراته الست تهاني، اللي خالك الناقص استخبى من جبنه وراها، ست كانت طيبة -الله يرحمها- غير خالك خالص وكلنا كنا بنحبها، والطلقة التانية جت في دراعي في الوقت اللي خالك رماني فيه قدام المسدس الله يلعنه".

"الخدم ورجالة خالك قدروا يضربوا أبوكي، ويكتفوه ويسلموه للشرطة بعد تعديه على الأرواح وعلى ممتلكات خاصة".

"مكنش فيه دليل واحد يدين خالك قصاد كل اللي عمله أبوكي وموت تهاني هانم وإصابتي طبعًا، هلوسات أبوكي عن خطف أخته مكنش فيه دليل واحد قصادها؛ لأنه ببساطة مكنش بيقول غير أنها اتخطفت، لا بيقول فين ولا إزاي ولا فيه شهود حتى، كمان غير مرضها النفسي ومحاولات هروبها الكتيرة، يعني قضية أبوكي كانت خسرانة بالكامل، والداخلية حلتها ودي وباعتذار منهم على كل اللي حصل من رجلهم، وأكدوا أنه تصرف فردي متسرع، بناء على اتهامات وتحقيقات غير مؤكدة".

"عارفة ليه بحكيلك كل ده بالتفصيل، عشان كده كده الأوراق بقت بتتكشف لوحدها، الوساخة مهما مر عليها الزمن ريحتها هتطلع وهتطول صاحبها".

"وكمان عشان بقى ليكي ضهر يا نهلة، سعيد بيحبك بجنون بشكل إنتي مش متخيلاه، ولا متخيلة عمل أيه ويقدر على أيه عشانك، عمره ما ها يسمح لإيد سعد الجرار تمسك حتى لو فيها سجنه أو خسارة شريكه أو موته".

"استغلي سعيد يا نهلة، دي ورقتك الربحانة يا بنتي، استغلي حبه ليكي وخوفه عليكي، وأشوي سعد الجرار على نار سعيد".

"أشوفه مذلول يا نهلة قبل ما أموت".

ستراه يا زاهد... اطمئن، ستراه جيدًا وتملأ عينيك من سقوطه ولكن على مهل، فمكانة سعد عندي لن أرضى لها بالتصفية السريعة...

سعد الجرار... سيرجو الموت ولن يجده.

لن يجده أبدًا.

***

أعادت نهلة النظر في الرسالة النصية، التي وصلتها مؤخرًا وهي تتلاعب بالهاتف بين يديها.

"خلي بالك كويس، خليكي صاحية، ركزي في الصور".

هرب منها الوقت وهي غارقة في التفكير، تحاول جمع الأفكار والرسائل مرة أخرى.

انتزعتها من أفكارها تلك الطرقات الودودة على باب غرفتها، ظهر وجه إيمان من خلف الباب:

"هو إنتي قاعدة لوحدك ليه هنا، وإحنا كلنا برة سهرانين مع بعض، أخص عليكي يا نهلة، ده هشام سأل عليكي كذا مرة وسلمى بعتتني أجيبك، قعدتنا ناقصاك يا نهلة، والصراحة بقى سعيد حاله يصعب على الكافر، تحسيه معانا بس قلبه معاكي، ما تكسريش يا نهلة بخاطره أرجوك ده بيحبك جدا".

نظرت لها نهلة نظرة حنونة ثم أردفت:

"حاضر ها أطلع حالا".

ثم نهضت من مكانها ترسم المرح المزيف على ملامحها، وتلصق الابتسامة جيدًا حتى لا يحس بها أحد، غادرت غرفتها لتجلس بينهم جسدًا فقط وعقلها في مكان آخر.

***

الفصل الثاني

نهضت من فراشها يكاد ألم رأسها وصداعها النصفي يعصف بها من جراء سهرة أمس، تمالكت نفسها لتقوم وتوجهت ناحية النافذة.

أصبحت تكره النوافذ والأسقف والحيطان، وكأنها جميعًا قد وجدت لتسجنها، وكأنها لم تملك حريتها يومًا واحدًا في حياتها.

تساءلت في نفسها:

"كيف أمكنني الصمود بعد كل ما مررت به؟!

لماذا تتشبث روحي بتلك الحياة المؤلمة رغم فقداني لعقلي تارة، وفقداني لأحبتي تارة أخرى؟!"

جلست على طرف فراشها تتمنى من الله أن تنهمر دموعها كما السابق، فجفافها لن يودي بحياتها بسهولة إنما يقتلها ببطء.

"لا شيء في عينيك يمنع الدموع"، هكذا صرح لها طبيب العيون الذي زارته مؤخرًا.

"أتعذب كل دقيقة من الآلام التي في قلبي، لم أعد أنام بأريحية، كل ليلة يا الله أقول ربما غدًا لن أستيقظ، ولكني أرى الصباح يتخلل نوره جفوني فتؤلمني تلك الغصة في قلبي من جديد".

رن هاتفها ليقطعها من مناجاة ربها، إنها رسالة جديدة.

"هدية عيد ميلادك، صور تلك العقود بألف هدية".

شهقت في دهشة واتَّسعت عيناها مما تراه أمامها.

فعلى شاشة هاتفها ظهر خيطًا جديدًا في لعبة سعد الجرار.

***

استلقت نهلة في حوض الاستحمام مغمضة العينين، تذكرت يوم حفلها في دبي، حينما عادت متلهفة تنبض كل خلية منها بالشوق والحب لخالد، وقد رأت بعينها غيرته من جاسم، خرجت ليلتها من الحمام لتجد اتصالاته المتكررة ليطمئن على وصولها.

تمنت في أعماقها لو كان حيًا، حتى لو لم يكتب لها الاجتماع معه لكن يكفي وجوده بين الأحياء.

ظنت أن هذا تحقق في باريس، عندما رأت شبيهه المحتال وإليزابيث الزائفة، رضيت بأن لا يذكر اسمها أو حبها أو تضحيتها مقابل أن يحيا هو فقط.

ولكن حتى هذا الطلب لم يعد متوفرًا.

"هل كان الحفل حقيقيًا؟ أم هو وهم أيضًا؟ لربما لم يكن هناك أي شيء في ذاكرتي حقيقيًا، وكأنما فقاعة كبيرة من الأكاذيب والأوهام، قد ابتلعتني بداخلها فلم أعد أرى غير ما تحتويه ونسيت ما كان خارجها".

فتحت عينيها التي تحجرت بلا دموع، نهضت لترتدي ملابسها وخرجت من الحمام.

أجفلت عندما رأت سعيد أمامها، جالسًا على السرير بيده زجاجة عطرها المفضل، نهض مبتسمًا ما أن رآها، التفت يده تلقائيًا حول خصرها وقربها منه، لثم عنقها بشفتيه، التصق بجسدها ثم أمسك بوجهها بين كفيه، انحنى ليقبلها حينما أدارت وجهها بعيدًا، زفر في عصبية وقال غاضبًا:

"لحد أمتى يا نهلة، أنا جوزك وليا حق أكون معاكي وجنبك".

ابتعدت عنه لتجلس على الفراش بلا أي ردة فعل، مما زاد من حنقه؛ فحطم المرآة المواجهة لها بقبضته في قوة أخافتها، فتراجعت ملتصقة بالسرير.

"أنا مش هصبر على الدلع ده كتير، سنتين عدت وأنا ملتزم بوعدي معاكي، مش هقرب ليكي غير برضاكي، وأديتك وقت كفاية، أنا عايز أعرف ليه وافقتي ترجعي لي ما دام قلبك مش معايا".

هدأ من انفعاله قليلًا عندما أحس أنه على وشك خسارتها ثم أكمل:

"مستنية أيه، يقوم من بين الأموات ويرجعلك، ده على جثتي، أنا معاكي... في حياتك وفي قبرك".

ضغط على أسنانه في قوة ثم قال:

"وحتي لو قلبك مش معايا بكرة غصب عنه يبقى معايا، أنا يكفيني النهارده جسمك".

واندفع تجاهها متجاهلًا تشبثها بالفراش، متجاهلًا الدماء التي تسيل من يده، وجذبها بالقوة إلى صدره، حاولت أن تدفعه بعيدًا عنها صارخة بكل ما تملك من عزم، لكنه لم يعبأ وشرع على إكمال ما بدأه.

حاولت مقاومته عبثًا فهي تعلم قوته وضخامة جسده، أحسَّت بأن الأكسجين ينسحب من رئتيها، وقوتها تخمد شيئًا فشيئًا.

لم يستوقفه إلا غيابها عن وعيها تمامًا، فتحول عنها في كبرياء، هو لا يريدها جثة يتحكم في جسدها، هو يريد امتلاكها روحًا وجسدًا معًا، أن تهبه مشاعرها كلها وأن تنسى غريمه.

لم تعي شيئًا مما حولها، فانتفض واقفًا في غضب، وتركها ومضى إلى غرفته ساخطًا.

***

انسلت أشعة الشمس من بين ستائر غرفتها لتوقظها، ففتحت عينيها في بطء، أحسَّت بثقل رأسها التي مالت على الوسادة تلقائيًا.

تجولت عيناها حولها في الغرفة، لترى آثار ما حدث أمس، لكنها لم تجد أي شيء، الغرفة مرتبة كعادتها والمرآة...

شهقت بدون صوت ونهضت من مكانها، متجاهلة صداع رأسها، لتتحسس بيدها المرآة أمامها، لا شيء محطم!

تضاعفت دقات قلبها، فتراجعت في بطء لتجلس على طرف الفراش، تنظر بين الحين والآخر للمرآة، وكأنها ما عادت تصدق شيئًا.

ليس هناك من آثار للدماء لا على الأغطية ولا الأرضية.

أحست بالاختناق الشديد، فارتدت ملابسها وخرجت للذهاب إلى عملها مشتتة الذهن.

في الشركة، أمسكت بأحد الملفات في يدها، تراجعه هربًا من الذكريات والأفكار التي تلاحقها.

تجمدت نظراتها فجأة وظلت تفرك عينيها في دهشة، وهي ترى ندى أمامها، ظنت أن تهيؤاتها التي تزورها من حين لآخر.

أدارت نظراتها في المكان تتأكد أنها لا تزال في العمل، لم تصدق تلك الأعين المشوشة، لكنها صدقت خفقات القلب التي لا تتعالى هكذا إلا لها، قلبها قد خرج كليًا من جسدها، ليعانق تلك الروح الماثلة أمامها.

"تلك المفاجأة غير المتوقعة والعناق الطويل الذي اشتاقت له، لم أكن أحلم به قط يا صديقتي.

متى وكيف؟ لا أدري وليس مهمًا كما توقعت، بل المهم أنك أمامي الآن، وأنا أحتاج وجودك بجانبي أكثر مما مضى، رغم خطاباتي التي أرسلتها لك، أرجو منك البعد إلا أن الكلام كان أسهل بكثير من تنفيذه.

ففراقك كان أشد ألمًا من ألمي الذي أحمله بداخلي".

احتضنتها في ألم وشوق، ارتعش جسدها وهو يتساءل هل هذا أيضًا خيال؟

"وحشتيني يا نهلة، على فكرة أنا سألت إيمان وهي اللي دلتني على مكانك، محبتش أزورك في الفيلا، قولت هنا أفضل، يعني من المطار عليكي علطول يا فندم".

التقطت أنفاسها ثم أكملت:

"فترة طويلة عدت عليا، وأنا مش عارفة أوصل لك، خوفي وجبني خلوني أضعف من أني أقاوم، سافرت عشان ما استحملتش القهر هنا بس مقدرتش، مقدرتش يا صديقتي أكون خاينة زيهم، لو فضلت كاتمة الحقيقة جوايا هموت بيها يا نهلة، ومش هقدر أسامح نفسي أبدًا".

حاولت حبس دموعها وهي تقول:

"نهلة، أنا عارفة أن زيارتي مفاجئة، وأن اللي هقوله ها يكون تقيل عليكي، بس أنا مبقتش عارفة أعيش بكم الأسرار اللي جوايا، أوعديني إنك تسامحيني، وأنا هأحكي لك على كل حاجة".

بدأ حدس نهلة بدق ناقوس الخطر، وعلت الدهشة وجهها، وهي ترى دموع ندى التي اندفعت في غزارة، ليخيم التوتر على الأجواء.

"نهلة، إنتي عارفة أن بابا اتجوز بعد ماما الله يرحمها، اتجوز واحدة أصغر منه بكتير، وطبعًا عمري ما حكيت عنها قبل كده، لأن أساسًا مكنش فيه أي احتكاك ما بينا، بابا اتجوزها في فيلا جديدة، وعاش معاها هناك وكان بيزورني زي ما إنتي عارفة في شقة ماما، اللي رفضت أني أسيبها وأسكن معاه رغم توسلاته الكتيرة، بس كنت حاسة أني وجودي في شقة أمي أفضل".

التقطت أنفاسها من بين دموعها، وأكملت دون أن ترفع عينيها من الأرض، وكأنها تحمل وزرًا بهما وتخجل من مواجهة نهلة:

"ولما مات بابا -الله يرحمه- أنا رجعت من دبي، عشان الميراث ومشكلاته وكده، والحق يقال الست اللي كان متجوزها بابا كانت رافضة تاخد أي مليم من حقها اللي كتبهولها قبل موته، تقدري تقولي أنها كانت زاهدة فيه تمامًا، وده اللي خلاني أستغرب من سبب جوازها من راجل ضعف عمرها لو مكنش الفلوس هيكون أيه؟ وعرفت السبب منك بعد كده، كنت متخيلة أن سيطرة أخوها دي على الأغراب وبس، متخيلتش أنه كده حتى على أهل بيته، وأنه السبب في جوازها بالغصب من بابا".

اختلست نظرة لوجه نهلة الذي بدا مترقبًا للمفاجأة التي تخفيها ثم خفضت رأسها مجددًا في تأثر.

"هتستغربي طبعًا من كلامي أنك صاحبة الفضل أني أتعرف على الست دي عن قرب، واللي مكنتش أعرفها أو حاولت حتى أني أتعرف عليها بسبب... بسبب أخوها وجبروته وأفعاله وكنت مفكراها هي كمان زيه".

صمتت مرة أخرى وقد بدا الانفعال يغزو وجهها ثم سحبت نفسًا طويلًا، وأطلقت تنهيدة قوية وأكملت:

"الست دي هي سها الغريب، وأخوها سعيد اللي أعرفه من قبل جوازك أو بالأحرى أسمع عنه من بابا، اللي كان شريكه في شركة المقاولات، وكان بيخاف منه حرفيًا، إنتي كنتي عارفة أنه بابا مهندس وعنده شركة مقاولات، بس متعرفيش تفاصيل طبعًا عن شركائه، وعشان كده أنا كنت أول

الرافضين لجوازكم وبشدة، خصوصًا بعد ما عرفت أنه هو الراجل اللي جالك قدام الكلية بعربيته السودة، واللي اتغيرت كل حياتك بعدها من اليوم ده، للأسف مشوفتش وشه يومها، وإنتي مذكرتيش اسمه لما حكيتي لي، وكرهته أكتر بعد تهديده المباشر ليا، لما عرف أني صاحبتك المقربة، واللي خلاني فترة كبيرة مكنتش على اتصال بيكي بعد جوازك منه، ولما شجعتك تعملي له محضر... جالي البيت وهددني بأذيتك أكتر لو مبعدتش عنك أو حاولت تحذيرك بأي طريقة، وأنا كنت أجبن من أني أخسرك فسكتت واستسلمت لتهديده".

اندفعت مرة أخرى الدموع من عينيها بقوة ثم أكملت في صوت يخالجه الحزن:

"حتى لما ماتت سها مقدرتش أجي أعزي فيها، وها أعزي مين أساسًا، وأنا بكره سعيد ده لدرجة الموت".

"ويوم ما جالي ملفك يا نهلة، واتعرض قدامي توظيفك في دبي، فرحت لك من قلبي، حسيت أن ربنا بعتهالك فرصة للبداية تاني بعيد عن جبروت سعيد، وإني هكون السبب في مساعدتك رغم أن الاستقدام مكنش مني من الأساس".

رددت نهلة في دهشة: "مكنش منك؟".

أطرقت ندى برأسها مجددًا:

"اللي استقدمك هو نواف وطلبك بالاسم وبالبيانات كاملة، تقدري تقولي كان عايزك جوه شركته هو بالأخص".

هزت نهلة رأسها متسائلة في فضول:

"ليه؟".

هزت ندى رأسها فهي لم تجد إجابة لهذا السؤال بعد، ولكن نهلة وجدتها، تذكرت الرسالة التي أرسلها نواف لسعيد منذ سنتين عندما كانا في باريس، لم تكن تلك الرسالة وهما إذًا، هي لم تنسَ محتواها قط.

"أنا نسيت بكيفي ما جرى منك مع زوجة أخوي الخاينة، ودرتك عايش لأني أبى هذا لكن بالله لن أدرك هذي المرة".

رددت نهلة بأعين متسعة من الدهشة:

"عشان سعيد كان عشيق إليزابيث، ونواف عاش على أمل الانتقام منه، وأنا كنت اللعبة بتاعتهم، طليقة سعيد وبنته تحت إيديهم، وخالد... يا ترى كان عارف بده؟".

هدأت نهلة من أنفاسها المضطربة ثم أكملت وهي تحدث نفسها:

"طيب نواف وبيكره سعيد عشان كان عشيق إليزابيث، بس ليه سعيد بيكره خالد للدرجة دي؟ وليه نواف مفكرش يتخلص من سعيد، ليه سكت على أفعاله طول الفترة دي؟!"

فغرت ندى فاهها في ذهول فأشارت إليها نهلة أن تكمل، على أن تعود لهذه النقطة بعد الانتهاء.

ساد الصمت المكان، صار لا يسمع إلا صرير المفاجأت وتصفيق الأيام.

توترت ندى وهي تكمل حديثها مرة أخرى: "ولما خالد عمل حادثة يا نهلة، كلمتك على تليفونك كان مغلق ومعرفتش أوصلك، وبعدها بحوالي ساعة كلمني سعيد وشدد عليا، وهددني لو حاولت أني أبلغك بحادثة خالد، أو حتى أفكرك بيه مش بس هأذي نفسي، ده أقسم بالله أنه هيخفيكي لآخر العمر، ومحدش منَّا هيعرف لك طريق، وساعتها من خوفي ما أقدرتش أسأله يعني أيه أفكرك بخالد؟ ومنعني أني أنزل مصر، غير لما يقولي وبعد حوالي أربع شهور طلب مني أنزل، وعرفت ليه في الوقت ده بالذات، عرفت أنك فقدتي الذاكرة، ونسيتي خالد وكمان كنتي نسياني شخصيًا، عشان كده سعيد مسبنيش أنزل غير لما افتكرتيني، وبقيتي بتسألي عني كتير، ولما رجعتلك الذاكرة وسافرتي معايا عشان تشوفي خالد، سعيد سافر في نفس اليوم على طيارة خاصة، ولما انهارتي وأغمى عليكي قدر يرجع بيكي مصر، وطلب منَّا كلنا نمثل المسرحية اللي إنتي عارفاها، حتى دانا حفظها دورها كويس، ونبه عليها تنسى خالد خالص، بحجة أنك تعبانة، ولو افتكرتيه هتؤذي نفسك زي ما حاولتي كذا مرة فعلًا وكلنا شوفنا ده".

شردت نهلة قليلًا عند جملتها الأخيرة ثم سألت في شك:

"ندى، هو أنا لما كنت بأذي نفسي كنت بعمل ده إزاي، أقصد يعني أنا كنت بعمل ده قدامكم أو حد شافني، وأنا في الحالة دي".

"لا يا نهلة، إحنا كنا بنلاقي الممرضة معاكي جوة الأوضة وبتتصل بالدكتور بسرعة، وبتبلغه أنك حاولتي تنتحري تاني، وكنا بنشوفك بعد

الدكتور ما يوصل، إيدك عليها علامات جروح عميقة بتنزف دم، لدرجة في مرة اتأخرت الممرضة وأذيتي نفسك، ومعرفناش نعمل أيه، فطلعنا على المستشفى علطول، وده كان من ستر ربنا، لأنك ذرفتي دم كتير وكنا هنفقدك".

لم تعقب نهلة على كلامها، وشردت في تفكير عميق قطعه صوت ندى.

"نهلة، فيه سر كمان لازم أتخلص منه لأنه... لأنه بيحسسني بوجع رغم أن ربي اللي عالم أنه لا يؤذي أحد غيري، بس لازم تعرفيه مني أفضل ما تعرفيه من حد تاني".

انتظرت ردًا لم تجده من نهلة، التي تسمرت ملامحها تنتظر رفع الستار عن المفاجأة الجديدة.

فاليوم هو يوم الاعترافات العظيمة ولا يعلم لمن سيمنح صك الغفران.

" أنا كنت... وخالد، يعني أقصد" تلعثمت في حزن، ثم استجمعت قواها وقالت:

"أنا كنت بحب خالد قبلك يا نهلة حب مؤلم وموجع، تقدري تقولي من طرف واحد بس، وخالد عمره ما حس بيَّا ولا حركت فيه شعرة زي ما بيقولوا، عاش ومات من غير ما يعرف ولا يحس بحبي له".

انهمرت دمعتان ساخنتان على وجنتيها تشقان طريقهما نحو الانتحار كمثيلاتها.

لم تتحرك نهلة من مكانها قيد أنملة، ظلت ساكنة على وضعها تتأمل وتتفحص وجه ندى في برود وكأنها تتساءل:

"أين صديقتي؟ لابد وأنها ليست الجالسة أمامي تبعثر خزانة أسرارها العميقة، أين كنت أنا حين لم أرَ تعابير وجهها الحزين؟ كيف كنت أحكي عن مشاعري تجاه خالد بكل وقاحة؟ كيف لم أرَ وأنا أنظر إلى وجهها وفي داخل عينها بكل جرأة كل هذا الألم؟ هل كنت عمياء إلى هذا الحد أم أصبحت من الأنانية بدرجة لم أنتبه فيها لمن يعنيني أمره، فقدت دانا في أوج غبائي، وفقدت ندى في قمة أنانيتي".

نهضت من مكانها واحتضنت ندى، التي أجهشت بالبكاء، وأطلقت لمشاعرها العنان، بعد البوح بما اختزنته في صدرها كثيرًا، وكان يؤلمها عدم مشاركة نهلة به.

وأفضت لها الأخيرة بكل ما وصلها من رسائل وصور، وبكل ما علمته من زاهد، واتَّسعت عينا ندى من الدهشة والهلع، فربما لم يقابل عقلها كل هذه القذارات دفعة واحدة، إلا على شاشات التلفاز في مسلسلات إجرامية أو أفلام سيكوباتية.

هي مثل "نهلة" لم تتخيل قط أن العالم الصغير الذي تحيا فيه قد يكون أكثر سوادًا من الظلام، أو نسخة مضغوطة قذرة من العالم الكبير، تحمل فيها من الأعداء ما يفوق طاقتهم.

لكن الفرق بينهما أن نهلة قد عاشت هذا الكثير بالفعل، وعانت في طريقها ما أصقلها ودفعها للتأقلم على الغوص في ذلك السواد، فهي قد أدركت جوهر الحياة، فالعالم ليس بجمال البدايات أبدًا بل هو ببشاعة النهايات.

***

قل للرياح تأتي كيفما شاءت

فما عادت سفننا تشتهي شيئًا

لا موج يرهبنا فحياتنا ضاقت

ولا روح تسكننا كي نرتعد خوفًا

فأترك يدك عنها علها جاءت

كي تنفض الكذب عمن حولنا نفضًا

"عيلة أبوكي يا نهلة، دوري عليهم، ده العنوان".

رنت كلمات الرسالة النصية الأخيرة في عقل نهلة، وكأنها تسجيل صوتي يعيد نفسه تلقائيًا.

أعادت النظر مرة أخرى في الورقة، التي بين يديها، وتحوي عنوان أبيها الحقيقي، الذي دون في الرسالة الأخيرة.

ارتقت درجات السلم وهي تتأمل جدران البيت العتيق، تشتم رائحة الرطوبة الواضحة فيها، التي لم تزعجها بقدر ما أزعجت قلبها الحزين، الذي لم يكتب له الإحساس بوالدها، أو حتى رؤيته في الحقيقة ولو لمرة واحدة.

هذا البيت المتهالك قد ضم يومًا بين جنباته رجلًا كان السبب في وجودها، رغم أنها لا تحمل اسمه بعد.

التفتت نهلة للخلف لتتفاجأ بشخص ما وراءها، لم تحس به في انشغالها، رجل عجوز وجهه مثل البيت، يحمل خريطة كاملة للذكريات، قد حفرت بدقة على جلده المتجعد، علمت منه أنه حارس البيت أو ما تبقى منه حاليًا، يعمل هو وابنه في المحل التجاري الذي يواجهه، وقد لمحها وهي تلج للبيت وتتجول فيه.

سألته بضعة أسئلة عن أصحاب البيت أو من تبقى منهم، فأجابها الرجل أنه لم يتبق غير الوريث الوحيد له، وهو مهندس درويش كامل الذي كان يأتي ليطمئن على أحوال البيت وأحوال سكانه بين الحين والآخر، ولكنه انقطع منذ سنوات عن عادته، وصار الذي يهتم بأحواله الآن هو ابنه الوحيد.

إذًا عمها ما زال على قيد الحياة!

قفزت مثل طفلة صغيرة من فرحتها بهذا الخبر، أخيرًا قد توصلت لشخص من رائحة أبيها الحقيقي ودمه، كادت تحتضن الرجل العجوز، وهو يبلغها بعنوان عمها، شكرت له مساعدته، ومضت متعجلة بعدما خطت العنوان بالكامل على الورق.

توقفت سيارة الأجرة أمام العنوان بالضبط، عمارة قديمة هادئة في منطقة كليوباترا، ترجلت منها متحمسة تسابق دقات قلبها خطوات قدميها، وهي تقفز على درجات السلم.

حاولت السيطرة على انفعالاتها، عندما لمحت عيناها لافتة ذهبية صغيرة على إحدى الشقق منقوش عليها:

م/ درويش كامل

شركة الحراريات

"مازال في قلبي حياة بعد، مازال يخفق... يتحمس... يتوتر".

ترددت في ضغط زر الجرس ثم ما لبثت أن استجمعت قواها وفعلتها.

فتحت لها سيدة ستينية جميلة، يحمل وجهها من الرزانة والهدوء، ما بعث داخل نهلة الارتياح، فطلبت على خجل مقابلة درويش كامل لأمر عاجل.

انتظرت في الصالون بضع دقائق، حتى سمعت صوت خطوات ثلاثية متباطئة، فتح الباب وظهر رجل من خلفه يتكأ في مشيته على عصا خشبية غليظة، يبدو أن إحدى رجليه قد تضررت ضررًا بالغًا.

وجه أبيض مريح، مشرئب بحمرة خفيفة ونمش يغطيه، نفس الزوج من الأعين السوداء تمامًا كأبيها مع اختلاف تغييرات الزمن فيهما.

ابتسم الرجل لها لتأملها الصريح له، خفضت بصرها وتنحنحت قائلة في صوت متوتر وكلمات متلعثمة:

"اسمي نهلة، نهلة زاهد المنصوري، بنت سعاد الجرار، أظن أنها اسم مميز بالنسبة لك، أمي اتجوزت أخوك قبل زاهد، أخوك منير كامل...".

توقفت لتلتقط أنفاسها اللاهثة في الوقت الذي رأت فيه ملامح الرجل، وقد تغيرت من الود إلى العدائية والغضب، وصرخ فيها قائلًا:

"هي عيلة الجرار عايزة منَّا أيه تاني، مش كفاية اللي حصل، إنتوا عايزين مننا أيه بالظبط، اتفضلي برة لو سمحتي، ومش عايز أشوف وش حد فيكم تاني في بيتي، إنتوا فاهمين".

"طيب ممكن تسمعني لو سمحت، وبعدها أبقَ قرر اللي تحبه، أرجوك يا عمي".

نظر لها في احتقار لكلمتها الأخيرة، وكأنه ينفي وجود أي صلة تربطه بها، حتى لو كانت مجرد كلمة للتوقير والود، لم يعلم أنها خلال الدقائق القادمة ستغدو حقيقة.

"عمك أيه ، عمى الدبب، إنتوا مجرمين ومكانكم الحقيقي هو السجن مش الفلل، اتفضلي برة لو سمحتي، يا إما ها تضطريني أطلب لك الشرطة".

"أرجوك اسمعني مرة واحدة بس، وأوعدك مش هزعجك تاني أبدًا".

قالتها في رجاء حقيقي، فجلس في كرسيه على مضض مديرًا وجهه بعيدًا عن مقعدها، فتنحنحت في توتر:

"زاهد المنصوري مش أبويا الحقيقي يا م/ درويش، أنا أبويا الملازم منير كامل اللي دخل عش الجرار باسم المدرس محمد فهمي بيومي".

أخرجت من جيبها عقد زواج أمها بأبيها، وناولته لعمها الذي وضعه على المقعد بجانبه ولم يفتحه.

أربكتها فعلته فأكملت حديثها في توتر:

"بس للأسف العقد ده وقع في إيدي بعد موت أمي، وهي عمرها ما فتحت أو لمحت للموضوع ده في حياتها، وأخدت بنفسي العقد وروحت لسعد الجرار، وهو اللي حكى لي على جوازهم...".

بدأت انفعالاتها تطفو على وجهها من جديد:

"حكى لي عن حادثة أبويا وعن جدي -الله يرحمهم- وهو اللي قالي أن أمي كانت حامل في الشهر الثاني لما مات أبويا، وإن... وإن أنا أبقى بنت محمد بيومي، بس مقالش على الحقيقة كاملة، أنا عرفت الحقيقة من زاهد، واللي عرفته لحد اللحظة دي مش قادرة أصدقه".

كان وجه الرجل يحمل من الذهول والدماء ما أربك نهلة، فتوقفت عن الكلام تطمئن على حالته الصحية، قاطعهما في ذلك الحين صوت طرقات على الباب، دلف الطارق للداخل تعلو وجهه ابتسامة ودودة مرحة.

ما أن وقع بصره على نهلة ورأته هي الأخرى، حتى توقف قلبها عن النبض مجددًا... لم يحتمل المفاجأة فخبت نوره وتجمدت عروقه.

فأمامها واقفًا...

أمام عينيها المذهولتين...

مصطفى درويش... حبها الأول ومعيدها السابق في كلية التجارة...

مصطفى درويش الذي أتى لمنامها منذ يومين، عندما حلمت بوقوفها أمام جامعتها، واستغربت لرؤيته ومساعدته لها في الحلم، هو من أدمى قلبها يومًا ما يقف الآن أمامها بشحمه وبلحمه.

الآن فهمت سبب زيارته لها في منامها، فعقلها الباطن يسبقها بمراحل، حدسها مرة أخرى لم يجلب سوى المشكلات.

"قائمتك لن تتركك أبدًا يا نهلة أما تنهيها أو تنهيك".

تردد صدى الجملة في عقلها مرارًا وتكرارًا ومع توترها الزائد فقدت وعيها من جديد.

****

استمعت نهلة لكلام عمها، الذي بدأ الحديث عندما تأكد من استفاقتها واطمئن عليها.

"عارفة يا بنتي أيه اللي مخليني أصدق كلامك، وأتيقن من أنه حقيقة، حاجة واحدة بس؟ أن حادثتي اللي حصلت لي، وإصابتي وتقاعدي المبكر كان بسببك إنتي".

تغيرت تعابير وجه نهلة للتساؤل، فأكمل كلامه في هدوء:

"مصطفى درويش الأسيوطي معيدك في الجامعة، اللي هو ابني وفي نفس الوقت ابن عمك...".

اتسعت عينا مصطفى في ذهول، وهو يحدق في وجه أبيه بينما اختفت الحياة من وجه نهلة تمامًا الذي ذهبت منه الدماء وتحول للون الأبيض.

"كان بيحبك فعلًا حب صادق يا بنتي، وكلنا كنا معاه وموافقين على قراره لحد ما...".

بدا أن الرجل يقاوم غضبًا داخليًا، ويحاول منعه من الظهور لحديثه:

"خالك سعد الجرار بعد ما عرف من زاهد أن فيه حد متقدم لخطبتك، عمل تحرياته وقدر يوصل لكل معلومات العريس المحظوظ ده، واللي هو ابني الوحيد".

التقط أنفاسه قليلًا ثم عاود الحديث:

"جالي البيت وهددني بكل وقاحة ووضوح أن ابني ميكونش له أي علاقة بيكي من قريب أو من بعيد، وأن ابني نفسه ميعرفش بكلامنا ده عشان مصلحته، ومقالش طبعًا السبب أيه بس كان وقتها التفسير الوحيد هو الماضي الدموي اللي ما بين العيلتين".

"بس دلوقتي فهمت كل حاجة، خالك كان عارف أن أخويا له بنت من صلبه، والبنت دي على قيد الحياة".

"وقتها بقى أخدتني الحمية، ورفضت تهديده، وتمسكت بقرار ابني واختياره وطردت خالك من بيتي، وللأسف دي كانت النتيجة".

وأشار في حزن مختلط بهيبة إلى رجله اليسرى المتضررة:

"حادثة، قرصة ودان من خالك، عشان يربيني ويفهمني أن اللي حصل ليَّا ولأختي ولأخويا ممكن يحصل لابني كمان، ومحدش يعرف هنا في البيت أي حاجة غير أني رفضت بعد الحادثة دي وبشدة جواز ابني منك، ووصل بيَّا الحال أني أحط جوازه منك في كفة ورضايا عنه في الكفة التانية، وبلغته أسباب زايفة لرفضي ارتباطكم أنه بسبب المستوى الاجتماعي، وظروف انفصال والدك ووالدتك".

تنهد درويش في حزن وألم ثم أكمل:

"أنا أختي وأخويا ضاعوا مني، مقدرتش أضحي بابني كمان".

ارتسمت الحيرة على وجه مصطفى، وهو ينقل بصره ما بين أبيه وبين نهلة التي لم يتقبل عقله بعد صلة القرابة بينهما.

نهلة حبه الوحيد... هي ابنة عمه إيضًا!

أطرق عمها بنظراته للأرض قائلًا في تأثر:

"سامحيني يا بنتي".

لم تجد ما تقوله فأغرق الصمت المكان، قطعه عمها بصوت متهدج وأنفاس متقطعة:

"بس فيه حاجة واحدة أشك أن حد قالك عليها... حتى زاهد نفسه".

نظر في عيني نهلة ببطء ثم أكمل:

"أبوكي ممتش، أبوكي لسه عايش!"

***

خطت نهلة إلى داخل مكتب أ/ صبري عبد الحق المحامي بخطوات هادئة، وهي تتشبث بالملف الذي تمسك به في يدها، وكأنه طوق النجاة الوحيد لها.

"اتفضلي يا مدام نهلة، أهلًا وسهلًا، حضرتك شرفتي مكتبي".

"الشرف ليَّا يا أ/ صبري، شكرًا جدًا على وقتك".

"العفو يا فندم، تشربي أيه".

هزت رأسها نافية في شكر، فكرر الرجل عرضه في إلحاح، فردت في أدب:

"قهوة سادة بعد إذنك".

ضغط صبري على زر الاستدعاء قائلًا:

"اتنين قهوة سادة يا رانيا بعد إذنك".

ثم تنحنح قائلًا:

"اللي فهمته من حضرتك في التليفون أنها قضية إثبات نسب، لشخص عايش بس فاقد الأهلية العقلية، ما تقلقيش خالص يا فندم القضية سهلة بعون الله، هنا في المكتب عندنا كل القضايا اللي تتخيليها".

هزت رأسها متفهمة ثم قالت في هدوء:

"أنا معايا أوراق تانية يا أ/ صبري، أوراق مهمة بالنسبالي، محتاجة رأي حضرتك فيها".

****

الفصل الثالث

خرج سعيد من بوابة إحدى شركاته المعنية بالمقاولات، وهو في حالة غبطة بعد توقيعه أهم صفقة في تاريخه التجاري، كما أن اليوم هو أيضًا يوم ميلاد نهلة، وهو قد أعد لها مفاجأة كبيرة بالاتفاق مع إخوتها، رن هاتفه فجأة فتوقف أمام سيارته، وأخرجه من جيبه، ليقرأ الرسالة التي وصلته للتو.

امتقع وجه سعيد حال ما انتهى من قراءة الرسالة النصية، فقفز في كرسي القيادة، أدار مقود السيارة في عنف محاولًا اللحاق بما تبقى من الوقت.

ترك موتور السيارة يعمل، وترجل منها بأقصى سرعته؛ ليقتحم فيلا سعد الجرار.

"إنت اتجننت يا سعيد، إزاي تسمح لنفسك تشدني زي البهيمة كده من فيلتي، وتركبني معاك بالعافية، أيه الشيء الضروري اللي يخليك تتصرف كده".

ظلت نظرات سعيد مثبتة على الطريق، وهو يقود السيارة بسرعة بالغة، وقال في غضب:

"نهلة في طريقها تكشف مخططاتك، ومؤامراتك العظيمة، وطبعا إنت كده رايح في داهية رسمي، وأنا هتاخد معاك في الرجلين".

"إنت بتخرف تقول أيه، مخططات أيه ومؤامرات أيه؟ ونهلة أيه دي اللي لسه بتعمل لها حساب، دي حتة مجنونة مبقتش عارفة نهارها من ليلها".

"سعد، إنت عارف كويس أنا بحب نهلة أد أيه، وأنها أهم حد عندي في الدنيا، أهم حتى من روحي، أهم منك شخصيًا، وأنا ما يهمنيش في كل ده غيرها، ولو على جنونها ما هو كله بسببك ومن تحت رأسك، أنا طلبت منك أنك تساعدني في أنها تكون ملكي، وبس تقوم تخلي دكتورك المخبول يديها أدوية تغيب عقلها علطول".

"مش المهم حصل إزاي، المهم أنها بقت معاك، عايز أيه تاني، هي دي طريقة شكرك ليَّا، وبعدين عملت أيه لما بقت معاك، مش عارف تكسر دماغ حتة عيلة ما تعرفش حاجة في الدنيا يا سعيد باشا، ده إحنا ياما كسرنا ودفنا اللي أحسن منها، إشمعنا دي اللي وقفت عندها، الظاهر كانت غلطتي فعلًا أني بعتهالك المول من غير ما أقولك، واتعمدت أنك تشوفها عشان عارفك بتحب النوع ده أوي، قولت أهو تتجوزها وزادنا في دقيقنا ونخلص، ونطمئن أنها دايمًا هتكون تحت طوعك وطوعي، بس أقول أيه بت زي دي بدل ما تلف إنت دماغها تقوم تلف هي دماغك".

"ما هو ده اللي بحاول أفهمه لجنابك من الصبح، نهلة على وشك أنها تعرف كل اللي حصل، والأدهى حصل ليه وعشان أيه؟"

" يعني أيه يا سعيد، وضح كلامك الغامض ده".

حكى له سعيد عن الرسالة النصية اللي وصلت له منذ قليل، واندهش لردة فعل سعد الغريبة وقد بلغ به الضحك مبلغه وقهقه عاليًا:

"إنت اتخبلت يا سعيد، إنت رجعت للشرب تاني؟ بقى كل الإزعاج والدوشة والسربعة دي عشان رسالة تهديد تافهة وصلت لك، أنا بدأت أشك في قدراتك إنت العقلية، مش قدرات نهلة، عيب عليك يا حوت السوق، يا رجل الاعمال المهيب تجيبني على ملا وشي، وترفع لي الضغط بسبب نكتة بايخة، من مبتز ساذج أهطل ما يعرفش بيلعب مع مين".

انحرف سعيد بالسيارة في عنف، فأطلقت عجلاتها صريرًا مزعجًا كاد يقلبها رأسًا على عقب، وتوقف على يمين الطريق مما حدا بسعد للغضب والصراخ عاليًا:

"الله يخربيت جنونك، إنت عايز تموتنا يا مخبول إنت".

لم يستمع سعيد لصراخه، وهو يخرج هاتفه المحمول، ويضعه أمام عيني سعد، قائلًا في ثورة:

"أنا مش أهبل عشان أصدق أي مبتز، ومش عبيط عشان أنزل بنفسي وأخدك في إيدي نقابله، رغم أنها مخاطرة ومجازفة مش سهلة، بس ده مش مبتز عادي يا سعد بيه، شوف بعت لي أيه مع الرسالة، اتفرج كويس ودقق، دي صور من العقود اللي معاه، وصور لمصنع البلاط المهجور، ومصنع

اللحوم بتاعك، وفيديوهات للقاءاتك المشرفة وإنت بترشي رجالتنا في الحكومة، تفتكر أيه الرسالة اللي عاوز يوصلها".

اتسعت عينا سعد الجرار من الصدمة، فأمامه مباشرة صور لماضٍ سيهدم إمبراطوريته على رأسه، وصور لعقود مالية على وشك إنهاء كل ما بدأه، وما أخفاه طوال السنين الماضية.

على وشك إنهائه هو شخصيًا.

***

دلف سعيد والجرار ببطء إلى داخل الشقة التي أرسل عنوانها في الرسالة النصية لمقابلة مبتزهما.

تلفت سعيد حوله في توتر وقلق، كان على وشك تفحص الغرف، حينما نادي عليه سعد، فقد لفت انتباهه مجموعة من الأقراص الممغنطة على إحدى الطاولات في الصالون، فالتقطها ليقرأ ما كتب عليها بوضوح "سعد باشا الجرار".

أشار لسعيد بفتح جهاز الكمبيوتر القريب منهما، ووضع أحد الأقراص فيه، ليجد أمامه أيقونات لتسجيلات ومقاطع فيديو.

ابتلع سعيد ريقه في قلق، ثم ضغط على إحدى الأيقونات، فظهر تسجيلًا لشاشة كاميرا رقمية، لاجتماع سعد الجرار مع أحد ممثلي لجنة المناقصات العامة بالدولة، وقد ظهر واضحًا صوتًا، وصورة نجاح الجرار في رشوته ومنحه شيكًا بنكيًا نظير خدماته.

امتقع وجه كلاهما وهما يتبادلان النظرات في توتر بالغ، زاد من حدته صوت سيارات الشرطة العالية التي توقفت أسفل العمارة.

فهما كلاهما أنهما المريدان فهناك من يتلاعب بهما وبقسوة.

هناك من يعبث في الماضي ويصفي حسابات قديمة.

***

"نهلة صدقيني، هطلع من القضية دي كلها زي الشعرة من العجينة، أنا معايا كتيبة محامين وأسماء تقيلة جدًا، مش هتقدر تتخلى عني، أنا لو وقعت يا نهلة هيقع معايا كل اللي ورا الستارة، ما تقلقيش".

التقط سعيد أنفاسه، ثم عاود الكلام وهو يحاول التهرب بنظراته من نظراتها الحادة.

"نهلة، افهميني، أنا معملتش حاجة غلط، أنا عملت زي ما الكل بيعمل، إحنا مبنشتغلش في جامع، إحنا بنشتغل في بار، ومينفعش نبيع حاجة مبنشربهاش، شغلنا مش هيمشي غير بكده".

"أنا مش جاية أسألك على التهم الموجهة ليك يا سعيد رغم يقيني أنها حقيقة، يكفي أن شريكك وأبوك الروحي هو سعد الجرار!".

واجهته بنظرات نارية فقال مدافعًا عن نفسه في تلعثم:

"نهلة صدقيني هو شريكي فعلًا، بس أنا ماليش علاقة به، غير بشراكة شركتنا وبس، شراكة ورثتها من أبويا، شركاته هو حاجة ما تخصنيش...

صدقيني يا نهلة إنتي اللي تهميني في كل ده، أنا بحبك ومتمسك بيكي وإنتي عارفة أنا عشانك ممكن أعمل أيه".

"كنت عارف بأمر العقود يا سعيد صح؟ مقابلتك ليَّا في المول مكنتش صدفة ولا قدر، كانت بتخطيط الجرار، بعت لك البضاعة اللي عارف أنك بتحبها، ولما شوفتني عجبتك زي ما هو اتوقع... حاولت تعتدي عليَّا قاومتك فدخلت دماغك واللعبة قلبت جد، وبدل ما تعلقني أنا... اتعلقت إنت".

ارتسمت ملامح التوتر على وجه سعيد، الذي حاول مقاطعتها ليتهرب من مصيدة الفأر الواقع بها، لكنها أشارت له بالتوقف وأكملت في ألم:

"عارف أيه اللي واجعني، أني مبقتش عارفة فين الحقيقة وفين الكدب، والفضل ليك فعلًا، دكتورك الفاضل اللي بيكتب لي أدوية تغيبني عن الوعي، وأصابني باكتئاب وانفصال عن الواقع، لما تسجني زي العبيد في فيلتك، وأنام بالليالي، وأقوم معرفش أنا في أنهي يوم أو شهر، أنا بقالي سنتين مريضة، ويمكن من قبلها من وقت ما كنا في باريس، يا ترى هو ده الحب عندك؟ لما تتفق مع ألد أعدائي وأكتر إنسان بكرهه... يبقى ده اسمه حب يا سعيد؟ إنت فعلًا مصدق نفسك... مصدق اللي بتقوله".

"الدكتور ده مش تبعي يا نهلة والله العظيم ما عرفت عن الأدوية دي غير من فترة قريبة، وعشان كده منعت الدكتور يجي تاني وطلبت منك توقفيها، هو كان مفهمني أنها أدوية بتريحك من الضغوط والتفكير، عشان متأذيش نفسك، صدقيني يا نهلة ومالوش أي علاقة بالعقود، دي كانت لعبة سعد

الجرار، عشان يضمن سكوتك علطول، وعشان لو اكتشفتيها في يوم من الأيام هيكون رفع عليكي قضية اختلال عقلي، وتفضلي تحت وصايته أو وصاية زاهد ده اللي فهمته منه، وعشان كده فضلت تكوني تحت وصايتي أنا عنهم، أنا أرحم ليكي منهم، سعد بيكرهك يا نهلة وأنا بحبك".

التقط أنفاسه ثم أكمل في لين:

"مسألتيش نفسك إنتي ليه لسه عايشة لحد دلوقتي؟ ليه الجرار ملمسكيش أو قدر يؤذيكي زي غيرك... إنتي مش هتكوني أغلى عنده من أمك اللي رماها وداس عليها، أنا أمانك يا نهلة وسندك، أنا كارت نجاتك من الجرار وسدك الحصين قدامه، عمره ما هيلمسك وأنا على قيد الحياة".

تجاهلت نهلة كلماته وسألته في برود:

"وقتلك لخالد، اخترت تكسرني بطريقتك، اخترت أكتر انسان حبيته في الدنيا وقتلته، كل ده ليه؟!".

"مش أنا قسمًا بالله ما أنا، أنا عرفت من المساعد بتاعي هو بلغني يومها في التليفون أن خالد في المستشفى، وإن اللي دبر العملية من رجالة الجرار... لأنه مش هيسمح لحد زي خالد يرتبط بيكي عشان... عشان موضوع العقود دي".

"وأيه اللي يخليني أصدق كلامك، إنت شريكه في كل جرايمه؟".

"عشان... عشان أنا ما أقدرش أقتل خالد يا نهلة، خالد يبقى...".

واجهته نظراتها الفضولية فأطرق في الأرض صامتًا، هزت رأسها ثم تناولت حقيبة يدها وهبت واقفة في طريقها للخروج.

"نهلة، استني بس ما تمشيش هحكي لك كل حاجة".

"أنا عايزاك تفهم حاجة واحدة يا سعيد، أنك لو فكرت تكدب أو تخبي عليَّا أي حاجة أنا هعرف بطريقتي سواء النهارده أو في يوم من الأيام، ووقتها حتى مش هقدر أبص في وشك تاني".

ابتلع ريقه في صعوبة وهو يتحاشى نظراتها:

"خالد أخويا".

أكمل في تلعثم:

"إحنا أخوات من نفس الأم، جيهان غالي هي أمي قبل ما تغير اسمها لفريدة عبد المجيد، وتتجوز فهد الزيدان أبو خالد وتسافر معه الإمارات وتستقر هناك، واسألي حتى نواف لو مش مصدقاني، هو عارف كل حاجة".

اتسعت عينا نهلة في ذهول تحاول الاستيعاب:

"بس إنت خونته مع إليزابيث وإنت عارف أنه أخوك؟!".

رفع رأسه إليها متسائلًا في دهشة فأكملت:

"أنا عارفة بموضوعك إنت وإليزابيث".

"إليزابيث كانت كارت عشان أحرق قلب خالد وقلب نواف، وأخلي اسمهم وسمعة عيلتهم في التراب زي ما حصل لينا، حبيت أذله وأكسره، كان انتقام وتسلية ليَّا مش أكتر".

"ومسرحيتك الهزلية اللي فيها شبيه خالد وإليزابيث، وتشفيرك لموبايلي وحاجات كتير كدب، كلها كدب مش هقدر أنساها".

"صدقيني يا نهلة ده كان عشان مصلحتك، حالتك الصحية وقتها مكنتش تحتمل أبلغك بوفاته، والدكتور كمان نصحني بكده".

حاول الإمساك بيدها لكنها تراجعت للخلف في حدة وتمتمت:

"الكل بيكدب وبيقولوا عشان مصلحتي، مثلتوا عليَّا وخبيتوا عني أهلي وأبويا الحقيقي، أيدتوني سموم تغيب عقلي، شككتوني في مواقف أنا كنت عارفة أنها حقيقة... كل ده ليه، عشان العقود، حياتي كلها ضاعت بسبب تدخلكم، بسبب وصايتكم وكرهكم، اسمعني كويس يا سعيد... إنت تطلقني وانسى تمامًا أن فيها واحدة كان اسمها نهلة في حياتك".

"إنتي بتقولي أيه؟ أنا مش هتخلى عنك حتى لو أتخليتي عني، أنا بريء من التهم دي يا نهلة، وهخرج قريب وأثبت لك حبي وإخلاصي ليكي".

هزت نهلة رأسها مستنكرة وصرخت في غضب:

" إنت مش فاهم بعد كل ده أنا بتكلم في أيه، تهم أيه اللي بتحكي عنها، كفاية التهم اللي مش عارف تدافع عن نفسك فيها قدامي، جرايمك في حقي إنت وسعد الجرار مش هغفرها أبدًا يا سعيد، إنت مستوعب الحالة اللي وصلتني ليها، اتفاقك مع سعد كان هيوصلني للجنون وإنت راضي وساكت، قتل أخوك وإنت برضو راضي وساكت، ملكته أمري وخبيت عني عقود إنت عارف أهميتها بالنسبالي، وتقولي هثبت لك إخلاصي، أنا عرفت دلوقتي إخلاصك ووفاءك لمين".

طأطأ برأسه في الأرض، وهو يغالب الدموع التي تتسارع من عينيه أمامها.

"آخر سؤال يا سعيد، إنت كنت عارف أن أبويا الحقيقي لسه عايش؟".

اتسعت عينا سعيد الممتلئتين بالدموع فتحدث في تلعثم:

"موضوع أبوكي ده أنا ماليش أي علاقة به يا نهلة، ده بين سعد وأبويا -الله يرحمه- ويسامحه بحكم شراكتهم، أنا كنت وقتها شاب صغير، ومعرفش حاجة عن الموضوع ده".

"يعني مكنتش تعرف أن أبويا ظابط، وإن سعد الجرار حاول قتله أكتر من مرة، وإن حتى حادثة العربية اللي حكى لي عنها... أبويا خرج منها سليم وممتش".

ابتلع سعيد ريقه في صعوبة وتمتم:

"أرجوكي يا نهلة صدقيني أنا ماليش علاقة بكل ده، أنا عايزك إنتي ودانا وبس، أوعدك أن أول ما أخرج من هنا هسافر أنا وإنتي، هصفي أعمالي ونهاجر للأبد... نهلة، نهلة اسمعيني إنتي رايحة فين".

نهضت من مكانها سريعًا، ولم تعبأ بصراخه مناديا باسمها، وأنهت زيارتها له وخرجت تتنفس الصعداء.

ما أن عبرت بوابة السجن حتى جلست على الرصيف المجاور له تحاول السيطرة على لهاثها.

***

مشت في الشوارع لا تدري إلى أين تقودها قدماها، لم تحس بنفسها إلا وهي أمام بيت أمها، فتحت بمفتاحها القديم، وجلست على أقرب مقعد إليها، رغم رائحة الهجر والتراب التي تعلو المكان، إلا أنه المكان الوحيد الذي تحس فيه بالاطمئنان والأمان.

تأملت جدرانه التي تشكو الوحدة بطريقة صارخة، فما عاد هناك من يزوره منذ زواج إيمان... الكل يرفل في ثراء سعيد، فمن سيأتي لهذا المكان البسيط حتى لو كانت ذكرياته لا تقدر بثمن؟

فهم يقضون الشتاء في فيلا سعيد والصيف في شواطئ أوروبا، فمن سينتبه لتلك الشقة الصغيرة بركامها؟!

تذكرت كيف كان النعيم هنا يومًا ما رغم الفقر. رغم الملابس البسيطة والحياة الزهيدة إلا أنها كانت أفضل حالًا وقتها مما هي فيه الآن.

ما جدوى الثراء والأموال التي تحت أقدامها، وهي بقلب مفطور تشقق صدعيه ما بين أمها وأبيها وخالد؟

ما جدوى الأموال المختلطة بالدماء والقتل؟!

خطت بقدميها لغرفة والدتها تدثرت بفراشها، وهي تحاول نفض الأعباء عن قلبها، الذي تذكر كل شيء منذ دخوله... مرض أمها وموتها، علبتها الصفيح والعقد الذي تحويه، وموت خالد، وفقدانها للذاكرة وللحياة كلها بعدهما.

وكأنها قد فتحت صندوق باندورا الذي يحوي شرور العالم كله، وتدفق لقلبها هي فقط.

تدثرت بالفراش أكثر، وكأنه هو ما تبقى لها وسط كل هذا الزيف.

أه لو عاد بها الزمن وتوقف قبل موت صديقتها دانا، عند تلك الحقبة فقط ولا يستمر.

رن هاتفها، إنها سلمى تطمئن عليها بعد الأحداث الأخيرة، وتطلب منها عودتها مبكرًا.

***

"إنت يا محامي الغبرة قدامك أسبوع واحد، تطلعني فيه من هنا، إنت فاهم".

صرخ سعيد بجملته وهو يمسك بتلابيب محاميه الخاص، مما دفع الأخير لتعديل نظاراته الطبية في توتر قائلًا:

"هو فيه أي حاجة نقصاك هنا يا سعيد بيه، لو حابب تغير الجناح ده ممكن ننقلك لمكان تاني زي ما تحب، رغم أن منظر الحديقة هنا أفضل من جناح سعد بيه".

"حديقة أيه وزفت أيه، أنا عايز أطلع من هنا على وجه السرعة أومال المحامين اللي تحت إيدك بيعملوا أيه، والشيك اللي ببعته كل شهر لمكتبك بتزفت بيه أيه".

"يا سعيد بيه حضرتك عارف أنها مش تهمة واحدة، والأحراز اللي لاقوها ودلائل الاتهام واضحة ومتصورة، ودي في حد ذاتها كارثة، ده غير أننا بنحاول نتخلص منها من جوة بطريقتنا؛ لأن المبتز كان ناسخ منها نسخ

تانية، والشقة اللي اتمسكتوا فيها دي طلعت متسجلة باسم زوجة ممثل لجنة المناقصات، بعقد من شركة سعد بيه الجرار، يعني القضية متلبسة بشياكة".

"وإنت كده طمنتني بقى صح، بقولك أيه دي شغلتك مش شغلتي، شوف ثغراتك وارشي اللي تحبه وخلصني".

عدل المحامي من منظاره الطبي في حركة عصبية قائلًا:

"بص يا سعيد بيه هو موقف حضرتك الحقيقة أفضل من موقف سعد بيه بكتير، خصوصًا قضية مصنع اللحوم دي، لو اتغوط فيها أكتر وفاحت ريحتها هتطير فيها رقاب كتير من شركائكم غير سعد بيه نفسه".

تلفت حوله في قلق ثم أكمل في لهجة خافتة:

"إنت متخيل أن اللانشون اللي بتأكله في بيتك وبتأكله لولادك وإنت متطمن، ممكن يكون فيه قطعة لحم من إيد أو فخدة بني آدم من بواقي لحوم تجارة الأعضاء، اللي متورط فيها سعد بيه، متخيل سيادتك بعد ما يقلبوا البني آدم من كليته وكبده وقرنيته ياخدوا كمان لحمه يفرموه مع لحوم البهايم، أنا مبقتش مستغرب الأمراض اللي بنشتكي منها كلنا دي جت منين، ده إحنا طلعنا من آكلي لحوم البشر يا سعيد بيه".

هز رأسه في عنف يطرد الفكرة المقززة من عقله قائلًا في غثيان:

"والله يا سعيد بيه ومالك عليَّا حلفان أنا منعت اللحوم المصنعة كلها من بيتي، من يوم ما عرفت الموضوع ده".

"إحنا في أيه ولا في أيه يا بجم إنت، الله يخربيت اليوم اللي عينتكم فيه يا أغبيا".

"أنا رأيي تهدى شوية يا سعيد بيه، واتأكد أني هطلعك من هنا زي ما وعدتك، بس أديني وقت عشان أعرف أتعامل في هدوء، وبكرر سؤالي لجنابك إنت ناقصك أي حاجة هنا".

"مراتي".

"ندخلهالك يا فندم، حضرتك ما قولتش ليه كده من الصبح، وتقعد معاك شهر كمان لو تحب".

"تدخلها فين يا زفت إنت، أنا مراتي رافعة عليَّا قضية خلع، والحكم الأسبوع الجاي وإنت تقولي أدخلهالك يا غبي".

عدل المحامي من نظاراته مرة أخرى في توتر كلما أهانه سعيد:

"احم، أيوة يا سعيد بيه وصل إنذار النهارده للمكتب بميعاد الجلسة".

"وناوي تعمل أيه أن شاء الله، هتقولي استنى برضو".

"لا جنابك سيبها علينا بس، وإحنا هنتصرف، أنا عايزك تطمن خالص مفيش حاجة هتتغير برة السجن غير برضاك".

أشاح سعيد بنظراته في حنق، نهلة تتفلت من بين قبضته كالماء السلس، وهو رغم جبروته داخل السجن وخارجه إلا أنه لا يسري هذا عليها، هو يدرك عنادها واختبره كثيرًا من قبل، لن تهدأ حتى تنل حريتها منه.

كم يكره تلك القضبان التي تمنعه عن الوصول إليها، ضرب المائدة بيده في قوة أفزعت المحامي فاستأذن وغادر.

حدث نفسه في سخط:

"أوعدك يا نهلة عندما أخرج لن أغيبك عن الوعي أيامًا فقط بل سأغيبك عن الحياة للأبد، وأضعك في قفص زجاجي لي وحدي لن يراك أو يلمسك غيري، سأحنطك أمام ناظري، وستغدين في قبضتي مجددًا".

***

مبني كبير يحمل علم مصر في واجهته، ملحق به مبنيان آخران، بدا أن قدمي نهلة على وشك خذلانها، فتوقفت في أحد الأروقة البيضاء بصحبة محاميها تلتقط أنفاسها.

فاقترب المحامي ليطمئن عليها قائلًا:

"مدام نهلة لو حاسة أنك مش مستعدة دلوقتي، وحابة نأجل المقابلة مفيش مشكلة، أنا أقدر أخرج تصريح في أي وقت".

هزت رأسها رافضة العودة لنقطة الصفر مرة أخرى، فهي لم تنم منذ يومين لعلمها أنها ستراه... ستقابله حقيقة وتعرفه عن قرب.

لملمت شتات أمرها، وأكملت السير جاهدة، حتى توقف محاميها لإنهاء بعض الإجراءات ثم رافقها لغرفته. علق في ذهنها رقم الغرفة ٢٧ / عنبر ن رجال.

تقدمها المحامي بعدما طرق على الباب وصحبه أحد الممرضين، انزاح كتفي المحامي من أمام ناظريها لتراه... رجل بسيط يرتدي بيجاما مقلمة باللونين الأزرق والأبيض، كان مستلقيًا عندما دخلوا، فاعتدل جالسًا على فراشه، وأطال النظر في الفراغ أمامه، تقدمت نهلة منه تغلبها مشاعرها في احتضانه، رغم أنه رجل غريب عنها، وهي لم تعتَد حتى مصافحة الغرباء، لكنها أحسَّت أنه منها وليس العكس، وأنه يحتاجها أكثر مما مضى.

كان طويلًا عريض المنكبين رغم ضعف جسده، وشحوب وجهه الذي غزته التجاعيد والخطوط العميقة، كانت تظن أنها الأقرب لملامح والدتها، لكنها الآن تدرك أن لون شعرها وأنفها واستدارة وجهها قد وهبها أبوها لها من ملامحه.

أشار لها الممرض بالجلوس فجلست على مضض تتأهب لاحتضانه، طلبت منه أن يحكي لها عن أبيها... ماذا يفعل وماذا يحب، ما الذي يكرهه؟ وكيف يمضي وقته؟

أخبرها بأشياء عادية عنه، حتى توقف في حديثه إلى جملتين انتزعتا قلب نهلة من مكانه نزعًا.

"ما بينامش غير والصورتين دول في حضنه، ودايمًا لما بيجيله دور حمى أو برد بيفضل ينادي على واحدة اسمها سعاد، وأحيانًا بنلاقيه في ركن من الأوضة هنا متكوم وبيكلمها".

اقتربت في بطء لترى الصورتين الموضوعتين على الدولاب الصغير بجواره، كانت إحداهما صورة له في حفل زفافه، وفوق رأس أمها قد رسم

بالقلم الرصاص تاج جميل، والصورة الأخرى ظهر فيها ثلاثة أشخاص توسطهم أبيها، عن يمينه شابة جميلة على ما يبدو أنها أخته الفقيدة، وعن شماله رجل يشبهه خمنت أنه عمها، الذي زارته منذ فترة فهو قريب الشبه للشاب الذي في الصورة.

استدار أبوها لها فجأة، ولمح الصور في يدها، فانتزعها منها ووضعها بداخل ملابسه يخفيها، وهو ينظر شذرًا للجميع.

حاولت لمس شعره والربت على كتفه، لكنه تراجع للخلف في هدوء، مبتعدًا عنها دون النظر إليها، جذبها المحامي من ذراعها في رفق، مشيرًا لها بضرورة الخروج واعدًا إياها بالعودة، وخروجه معها على مسئوليتها الشخصية، لكن بعد إثبات النسب له في قضيتها الحالية.

خرجت وهي ترجو عينيه أن تلتقي بخاصتها قبل غلق الباب ولو لوهلة، لربما رأى فيهما عيني أمها المميزتين، لو تركها تحتضنه فقط لأحس في كل ذرة منها باحتياجها لأبوته، لاشتم رائحة سعاد الجرار في جلدها.

رحلت وفي قلبها غصة وركن قد مال من جديد، لو يعلم سعد الجرار بمدى كرهها له، لرحل إلى أقصى الأرض يرجو السلامة.

ولكن من هي أمام سعد الجرار، ما هي قوتها وما حجمها؟

تمتمت في نفسها لربما غدوت في يوم ما قشته المميتة، فالنمرود قد جن بسبب حشرة احتقر حجمها، ولم يدرك أنه قوتها، وهي ستحيا على أمل أن تنتقم لأحبتها من فرعون عائلة الجرار.

***

دلفت نهلة للسجن للمرة الأخيرة، كما طلب منها محامي سعيد وألحَّ عليها كثيرًا، أنه مطلبه الوحيد رؤيتها قبل النطق بحكم الخلع في جلسة نهاية الأسبوع الحالي.

فتح لها جناحه الخاص، لكنها جفلت عندما رأت خالها جالسا على الأريكة وراء سعيد، نظر لها شزرًا وأدار وجهه للحائط، أخرج سيجار الكوبي الفاخر، وأشعله وهو يتفادى نظراتها المتألمة التي صرخت بدون صوت:

"ليه؟! ليه قتلت ناس أبرياء، ليه بتشتغل في الحرام، ليه أكلت حقنا وإحنا يتامى وأكلت حق أمي في ميراث جدي، كنت شايفنا محتاجين وأمي بتشتغل في البيوت، وبتمسح السلالم عشان تكمل تعليمنا، كانت أمي بتموت وجيت لك أشحت حق العملية منك، ياما أهنتني في بيتك، وإنت بتديني صدقتك، كل ده ولنا حق وميراث عندك، كل ده وإحنا أصحاب مال؟ ليه مقولتليش أن أبويا لسه عايش، ليه موتني مرتين؟"

انفلق قلبها وهي تنظر إليه، أكملت عيناها حديثها لعيناه الجاحدة:

"ليه أذيت أبويا وليه قتلت عمتي وغيرها كتير، ليه الظلم عشش في جدران روحك وملامح وشك، حتى نظراتك ما اتهزتش لحظة، رغم أنك عرفت أني كشفت كل حاجة".

تمنت لو أعتذر أو طلب الصفح والغفران، لو ركع على ركبتيه متوسلًا السماح والعفو، لو بكى على ما اقترفته يداه في حقهن وحق أمهن وأبيها، تمنت لو كان إنسانًا.

لكنه لم يعتذر، عيناه جاحدة لم تطلب الصفح ولن تطلبه أبدًا، فهناك بشر يفضلون الموت عن الاعتذار وهو واحد منهم.

تذكرت كلام زاهد...

"أتمنى أشوفه مذلول قبل ما أموت، حتى لو لغيري مش ليا".

لعن الله كبرك وغرورك يا رجل، علام الجحود في عينيك وإنت مجرم!

رفعت عيناها الحزينة تنظر لسعيد قائلة:

"اتفضل يا سعيد أنا سمعاك، إنت بلغت محاميك أنها المرة الأخيرة".

انتهى سعيد من حديثه لترفع نهلة عينيها اللتين ظلتا تحدقان في الأرض، وهو يروي تفاصيل صفقته، لتصطدم بوجه سعد الغاضب من خلفه، نهض الأخير من مكانه مشمئزًا وقال في حدة:

"إنت اتجننت يا سعيد، بت زي دي تلعب بعقلك وتخليك تعرض عليها عرض زي ده، إنت أكيد اتجننت أو البت دي عاملالك عمل أسود ومهبب فوق رأسك، إنت واعي للكلام اللي قلته، هي مش ماسكة علينا حاجة ولا تعرف حاجة، لأنها ببساطة هبلة وعبيطة وندوس عليها بجزمتنا ونعدي، إنت الظاهر الأيام اللي قضيتها في السجن لحست عقلك".

أخرجت نهلة هاتفها من الجيب الخلفي لحقيبتها، وأخذت تنقر على شاشته حتى توقفت أمام صورة بعينها، أدارت الجهاز لوجه الجرار وانتظرت ردة فعله.

ابتلع سعد ريقه في بطء حينما رأى الصورة المستقرة على شاشة الهاتف المحمول...

صورة تشير لقذارات الماضي بكل ما يحمله، حتى لو كان ما يخفيها ركام ناطحات سحاب أو لو كانت في سابع أرض فلابد لرائحة القذارة أن تفوح يومًا ما، طالما لم يتب صاحبها بعد، ولم يطلب الغفران.

نهلة الآن تعلم مثلهم بأمر مصنع البلاط المهجور ومصنع اللحوم أيضًا.

***

مشت هائمة في الطرقات لا تهتم إلى أين تذهب قدماها، فالتيه لن يزيد وضعها سوءًا، هي بالفعل تائهة لا تهتدي لسبيل.

الضياع أصبح قرينها، والشك كالطائر فوق رأسها ينتظر مدخلًا سانحًا ليدلف منه.

مضت تتلمس نور البصيرة كما يتلمس جلدها ضوء الشمس، أحسَّت وكأن روحها تخرج منها، وتصرخ في المارين، هل من أحد يساعدني؟ هل من أحد يرى حزني؟ إلى من ألتجأ وما عاد لي من أحد؟

"لو خرج أحد غدًا وأخبرني أن خالي الآخر هو نتنياهو، أعتقد أنني لن أكذبه أبدًا، فأنا قدري أصبح في ملاقاة الأوغاد فقط، والطيبون يغادرون عالمي سريعًا ربما لرحمة بهم من قذارته".

ترآى لها من بعيد مأذنة مسجد؛ فحثت الخطى إليه، توضأت وصلت، لكنها لم تجد ما تقوله لربها، من أين تبدأ والكلمات تفر من عقلها؟ صمتت

في السجود وتركت قلبها لله منه وإليه، هو يعلم ويداوي حين تكثر الجراح وتعجز النفس عن الوصف.

صرخ قلبها قائلًا:

"كن معي يا الله، لم أعد أثق بغيرك، لا تدعني في معركتي بمفردي، احمني وادعمني، مازالت نفسي هزيلة لا تصدق ما جلبته لها الحياة، أيقظني أن كان كابوسًا، ترفق بي فظنوني تدفعني لطريق لن يرضيك عني، لا تسلمني لنفسي ولا تتركني فريستهم".

طوال الطريق تفكر في عرض سعيد لها رغم اعتراض الجرار وغضبه الواضح وحنقه عليها، لكن يبدو أن لسعيد القبضة اليوم، يمسك بزمام الأمور في يده ويمسك برقبة الجرار أو هكذا خيل إليها.

أتساومني يا سعيد، بقائي معك مقابل أمني وأمن أحبتي، ومقابل ميراثنا بدون إزعاج أو جلبة.

حسنا يا سعيد فليكن.

تذكر فقط أنكم من هدمتم المعابد فلا تأتوا للصلاة في أنقاضها.

****

الفصل الرابع

" أبعد البدر أشتهي المحاق

أبعد نهلة أشتهي النساء

قلبي بيدك فاسأليه ما أردت

وافعلي بصاحب القلب ما هواك يشاء".

نهضت نهلة من فراشها، فهي لم تكن قد نامت بعد، فعقلها قد توقف عن العمل معلنًا حداده.

فمنذ قليل وصلها رسالة من التحري الخاص بها من بريد إلكتروني آخر:

"مدام / ن ٣٢، خمسة شهور وأنا أعمل على نفس ما أوكلتني به سيدتي، للأسف تبينت من موته، اعتذر عن الأخبار غير السارة".

نظرت من زجاج نافذتها للخارج، رأت انعكاس صورتها فيه وصورة خالد من خلفها، استدارت في بطء وهي تأمل أن يكون ما تراه حقيقيًا، تمنت لو

كان خلفها حتى لو وهمًا، فالهواجس أضحت لها السلوى في ظل ما تحياه حاليًا، لم تجد وراءها أحدًا، فأعادت النظر للزجاج مرة أخرى لقد اختفى أيضًا منه، أغمضت عينيها في ألم وفتحتهما لتلمح انعكاس دمعتان على وجنتيها في الزجاج، رفعت يدها تلقائيًا تتحسس وجهها، هل هطل مطرها أخيرًا عندما تأكد من موته؟

أجابتها يدها بالخيبة واليأس فليس هناك من مطر اليوم، إنما هما قطرتان من الماء على الزجاج الخارجي تلاعبتا بعقلها، كما يتلاعب بها كل من حولها.

فهل ستلقي اللوم على قطرتي ماء بسيطتين، وتنسى من تلاعبوا بها كدمى الماريونيت؟

تأملت سكون الشارع بالخارج، وكأن لاشيء حدث ولا خطب سيحدث قد يؤثر فيه.

السكون يغلف الكون كمشيمة الطفل، يغلف كل شيء إلا داخلها، وكأنها انفصلت عن هذا العالم منذ فترة طويلة، انقطع حبلها السري عنه فلا تسري عليها قوانينه ولا هدوءه.

زفرت في يأس.

"كيف السبيل إلى نسيانك يا خالد، وقد أغلقت الطرق وضاعت الحيل، عششت بداخلي وتشعبت، والآن لا أملك أن أنزعك مني إلا بموتي أنا أيضًا".

"لمَ ألتقيت بك يا خالد أن كنت في النهاية سترحل؟ أين الخير من دخولك حياتي ومن رحيلك؟ ليس هناك سوى الآلام والآلام والآلام".

استغفرت الله في ألم وحزن، فهو أعلم بما يعتريها الآن من الغضب الشديد، والنقم، والكره، والحقد.

رن هاتفها ليقطع مشاعرها المتألمة، إنها مديحة زوجة زاهد، لم تفهم منها شيئًا، هناك أصوات متداخلة حولها بالإضافة لضعف شبكة الاتصال.

ارتدت ملابسها على عجل، وتحدثت مع صغيرتها دانا قليلًا، تفهمها أنها لن تغيب بالخارج كثيرًا، ربما ساعة أو أقل وستعود سريعًا.

وصلت لبيت زاهد، قفزت درجات السلالم في سرعة عندما رأت تجمهر من الناس أمام سلالم وباب شقته، مرت في خفة من بينهم وتسللت للداخل، وجدت زوجة زاهد تستلقي مغشيًا عليها على أريكة الصالة، وعلى الجهة الأخرى التي ترمي إليها عيون المحدقين اتجه بصرها، تجمدت ملامحها وحاولت السيطرة على انفعالاتها مؤقتًا، اقتربت من الملاءة البيضاء التي تغطي جسدًا تحتها، تحيط به الدماء اللزجة ملطخة كل الأنحاء، رفعت طرفها في أنفاس متلاحقة مسموعة، صمت لها من حولها.

وتكشف الوجه الذي توقعته، لكنها لم تستطع أن تتحامل على قدميها، فخارت قواها على أقرب مقعد إليها.

فتحت هذه الملاءة يركد زاهد والدماء تحيط به بغزارة، وعلى رقبته تلك...

تلك الابتسامة الأخيرة التي أخبرها أنها ستنال من الجميع!

"إنتي السبب".

نطقتها إيمان في بكاء هستيري، وهي تشير بأصبعها المرتجف لنهلة في اتَّهام.

"امسكي أعصابك يا إيمان مش كده" حاولت سلمى التهدئة من عصبيتها.

"من ساعة ما قابلتي سي خالد بتاعك، وإنتي بيعتي الكل، هو في كفة وكلنا في كفة، أنانيتك دي اللي دمرتنا كلنا، مصلحتك فوق الكل يا نهلة هانم".

لم تنطق نهلة ببنت شفة، وهي تنظر لدموع إيمان المنهمرة على وجهها، التي تمنت لو امتلكت مثلها فلربما صدقوا حزنها وألمها.

"ما بتنطقيش ليه يا نهلة هانم، كان ممكن كلنا نعيش طبيعيين لو حضرتك كنتي اتكرمتي علينا وقبلتي بعيشتك، بس إزاي لازم طبعًا تنغصي عيشتنا كلنا وتلعبي بينا، استفادتي أيه لما سجنتي خالك يا هانم، كل ده عشان الورث اللي مش موجود إلا في خيالك المريض، طول عمرك بتحقدي على خالك وعلى مستواه، لازم تعرفي أن دي أرزاق وكل واحد وعيشته ولازم تكوني قنوعة وراضية، أمك نفسها -الله يرحمها- قالت إننا ملناش أي ورث لا من قريب ولا من بعيد".

"أمك قالت كده عشان كانت خايفة علينا، أفهمي إحنا لينا ورث يعيشنا ملوك مش شحاتين عند الجرار وسعيد ونستنى مساعدتهم".

"قصدك أيه يا نهلة، قصدك أن مساعدة سعيد ليَّا أنا وهشام في جوازنا وفي عملية الإنجاب بتاعتي كانت شحاتة، إنتي عارفة أد أيه كان نفسي أبقى أم وأن حالتي كانت صعبة، إنتي إزاي تجرؤئي...".

قاطعتها سلمى في سرعة:

"نهلة طبعًا ما تقصدش كده يا إيمان، إنتي اللي فهمتي غلط".

"أنا طلبت منك ١٠٠ مرة قبل كده يا إيمان ما تقبليش فلوس أو مساعدة من سعيد بأي حجة كانت، وإنتي كنتي ما بتسمعيش كلامي، قولتلك اعتمدي على نفسك إنتي وهشام، وبلاش تمكني سعيد منك بأفضال ملهاش لازمة".

صفقت إيمان بيديها في سخرية ممتزجة بالألم وقالت:

"وده اللي اتوقعته منك برضو، كنت متأكدة أنك عايزة الخير كله ليكي وبس، رافضة أننا نقبل مساعدات سعيد رغم أنك عارفة أنها كانت بإلحاحه، بتحرمي علينا ماله وإنتي عايشة في خيره وبتتقلبي في نعيمه لوحدك، ما فكرتيش لحظة أنك تساعدينا إنتي بنفسك، أنك تكوني أخت لينا بجد بدل سعيد اللي كان أخ حقيقي وسند، أنانيتك دي للأسف ما ظهرتش غير بعد مرض ماما، رفضتي تضحي وتقبلي الفلوس من سعيد رغم أنك حاليًا مراته وعلى زمته، يا بجاحتك يا شيخة".

"كنت رافضة وقتها أنه يساعدكم، عشان لو فلوسه فعلًا حرام ميبقاش ذنبي وذنبكم في رقبتي، كنت شاكة مجرد شك أنها حرام ودلوقتي اتأكدت، ومين قالك يا إيمان أني لما ابتديت أفوق من غيبوبتي ما نزلتش واشتغلت، عشان خايفة من الحرام ده، ورفضت أشتغل تحت سيطرته وفي شركاته، كانت بآكل في بيته وطعم الأكل مر علقم".

اقتربت إيمان من نهلة في جرأة سافرة، ونظرت لعينيها في غضب قائلة:

"بذمتك مش حاسة بالذنب، ضميرك مش بينهش فيكي وحياة أمي كانت بين إيديكي، رفضتي المساعدة من سي خالد بتاعك ومن ندى ومن سعيد، وكان ممكن تلحقيها ونعمل العملية، كبرياءك عماكي وكرهك لسعيد خلاكي تؤذي أقرب الناس ليكي، ده أبو بنتك، وإنتي كنتي السبب في سجنه، وإنتي عارفة أنه بريء، لا وكمان جريتي ترفعي عليه قضية خلع، ما صدقتي ترميه، يا جبروتك يا شيخة، ليه تفتري على خالك وتؤذيه، حتى لو كان بيعاملنا طول حياتنا وحش ده مش مبرر عشان تلفقي له تهم".

"هو اللي قالك كده؟" سألتها نهلة في ابتسامة ساخرة حزينة.

"أيوة زرته في السجن وهو اللي قالي على ألاعيبك وحقدك، الظاهر عقلك فعلًا مبقاش موجود، وبقى خيالك الواسع هو الواقع اللي عايشة فيه، يا خسارة يا نهلة مبقتيش نهلة اللي أعرفها، ذنب أمي وزاهد وخالك وسعيد وكل اللي أذيتيهم في رقبتك".

"ما سألتيش نفسك مين اللي قتل زاهد؟ "قالتها نهلة في هدوء.

"مش محتاجة أسأل عشان عارفة، إنتي اللي قتلتي زاهد لما عشمتيه بفلوس كتير لو أبتز خالي وسعيد، وقدم أدلة ملفقة عليهم، واشترك معاكي في لعبتك، بس للأسف ابتزازه وصل للناس اللي أعلى من خالي، ودول ناس معندهمش هزار، خالي حاول يبعت له حد يحذره بس ملحقش، وصلوا له قبله ونفذوا جريمتهم بمنتهى البشاعة".

"وإنتي صدقتي بقى كلام الجرار، صدقتي فعلًا المسرحية دي".

"أيوة صدقتها عشان خالي طول عمره رجل بيصلي ومالوش في القذارة اللي اتَّهمتيه بيها، وعشان إنتي مبقتيش في وعيك فعلًا وكلنا عارفين كده، إنتي حاولتي تؤذي نفسك كتير قبل كده، يعني إحنا مش هنكون أهم عندك من روحك".

"طيب ولو قولتلك أني عمري ما أذيت نفسي، وأن الممرضة اللي خالك أتفق معاها ترعاني الفترة دي، هي اللي كانت بتعمل فيَّا كده تحت تأثير المخدر وتبان أنها محاولات انتحار، طيب أقولك على حاجة تانية الدكتور نفسه كان معاهم في الجريمة دي، كان بيديني أدوية انفصام وذهان، تسمعي عنهم؟ عشان كده طول الوقت كنت مغيبة وما أعرفش الأيام والشهور".

"يااااه، كل ده وأيه كمان يا ست نهلة، ممرضة ودكتور الاتنين مأجورين وخالك بيحاول يقتلك ويغيبك عن وعيك، ده على كده فيلم هندي يا فندم".

ابتسمت نهلة في حزن مرددة:

"اعتبريني ما قولتش حاجة يا إيمان، صدقي كلامهم عني وارتاحي".

نظرت إيمان لسلمى في سخرية ممزوجة بالدموع:

"ممثلة جامدة أختك دي، ناقص تقولنا أن زاهد جوزها لسعيد عشان كان مجرم معاهم... أو عارفة هقولك ما يمكن زاهد مش أبوكي الحقيقي، وإحنا كمان مش أخواتك".

انهارت إيمان ضاحكة في هستيريا على حين تسمرت نهلة في مكانها قائلة في ألم يقتلها:

"نطقتي بها ساخرة يا إيمان، وإنتي غير مدركة لمدى صدقها".

***

أخرجتم المسخ فتحملوا ضحاياه

"نهلة، إنتي كويسة ودانا بخير، البقاء لله يا نهلة، أنا... مش عارف أقولك أيه، مش أنا...".

قالها سعيد في تردد وهو يتحاشى النظر لعين نهلة.

"ما تقلقش يا سعيد أنا عارفة أنه مش إنت اللي عملت كده".

"عارفة، عارفة إزاي يعني".

" دي حتى واضحة وضوح الشمس يا سعيد بيه، ولا السجن عمى عينيك وزود من ولاءك له، تقدر تقول توقيع سعد بيه كان على الجثة مش محتاج أدلة".

"إزاي بس، دي القضية أتقفلت والطب الشرعي قال إنها انتحار و...".

شبكت نهلة يديها أمام عينيها قائلة في ألم وعصبية:

"لا، أوعى يا سعيد تكدب، كده أزعل منك، أوعى تقلل من ذكائي، هو حد قالك أني غبية ولا أيه، إحنا اتفقنا ما تحاولش تكدب عليَّا أبدًا، ولا عايزني أزعل منك فعلًا وأرجع في اتِّفاقنا".

أطرق برأسه في الأرض ثم عاود النظر إليها قائلًا:

"وحشتيني، وحشتيني أوي يا نهلة، لو أعرف أني هبعد عنك كل الوقت ده، مكنتش طلعتك من حضني أبدًا".

تجاهلت نهلة كلماته، وكأنه لم يقل شيئًا ونظرت لأظافرها ثم قالت في برود:

"توعدني يا سعيد أنك تحميني".

نظر لها سعيد في شوق وهيام:

"إنتي عارفة كويس ومتأكدة من إجابتي قبل ما تسألي، إنتي لعنتي يا نهلة، نقطة ضعفي وقوتي".

"طيب ولو عرفت أن سعد الجرار عايز يتخلص مني زي زاهد، هتعمل أيه؟".

" أعمل إيه، ده أنا أمحيه من على وش الأرض، هو وبنته وشركاته، وميبقاش ليهم ذكر ولا اسم حد يترحم عليه" قالها في شراسة كأسد يدافع عن عرينه.

هزت رأسها موافقة على كلامه، ثم أخرجت هاتفها وضغطت بسرعة على أحد التسجيلات، لتعمل وراء بعضها تلقائيًا.

"أنا بكرهك، وبكره جوزك أكتر، وهمسحه من على وش الأرض، وقريب تشوفي ده بعينك".

"ميراث أيه اللي بتطالبي بيه، إنتي فاكرة نفسك بني آدمة ليها حقوق، ده أنا أفرم لحمك وأكله لكلابي بإيدي، وبنتك دي هحسر قلبك عليها، هوجعك وأتلذذ بدموعك وركوعك عند جزمتي".

لن تنكر نهلة إحساسها بالخوف يرتعد في أوصالها، وهي تنظر للتعابير المختلفة المرتسمة على وجه سعيد أمامها، وهو يستمع لصوت سعد الجرار الأجش، وهو يلقي بتهديداته وإهاناته، حاولت أن تهدأ منه حينما رأته يكشر عن أنيابه مزمجرًا ثم نهض فجأة، وهوى بقبضته على شاشة التلفاز المضغوطة المعلقة خلفه على حائط جناحه الفاخر في السجن.

"سعيد، أرجوك أهدأ واسمعني كويس".

لم يلتفت لها فأكملت وهي تحاول أن تدس اقتراحها برفق وسط الحديث:

"إنت لازم تعترف عليه يا سعيد، أكيد عندك مستندات أو أدلة أنا متأكدة من ذكائك، لو فعلًا خايف علينا أنا ودانا، سلمه للعدالة باللي عندك عليه، خليه على الأقل يعيش هنا بالمؤبد، أرجوك كفاية حماية له ودعم لفساده".

ابتلعت ريقها الجاف في صعوبة بالغة، وقد أفضت بما لديها، فاستدار يواجهها بعيون حمراء غاضبة:

"أنا هعين طقم حراسة جديد على الفيلا متقلقيش، وأوعي تخافي وأنا موجود، والباقي سيبيه عليَّا أنا هعرف أتصرف".

"أرجوك يا سعيد ما تقولش على التسجيلات دي هو ما يعرفش حاجة عنها أكيد".

مد يده ليربت عليها في رفق، حينما أحسَّ بارتعاش جسدها، فقال في حنان:

"قولتلك متخافيش وأنا لسه حي، الخوف ما تخلقش لوشك يا نهلة، ما تقلقيش هتكوني في أمان كأني معاكي، ومحدش هيقدر يمسك بسوء".

احتضنها في حب ثم قبل رأسها في حرارة، حينما انسلّت من بين يديه متحججة بتأخر الوقت لعودتها لدانا، حاول السيطرة على مشاعره وانفعالات جسده، فهز رأسه موافقًا إياها، رغم أنه طمع في المزيد خصيصًا بعد حرمانه الشديد منها، ورفضها المكوث معه في جناحه.

عبرت نهلة بوابة السجن ثم تغيرت ملامحها كليًّا، وهي تتحدث في هاتفها قائلة في حزم:

"ندى، أنا سمعته التسجيلات المقصوصة من مقابلتي مع الجرار زي ما أتفقنا، وفهم أن الكلام عليَّا أنا وهو ودانا مش على أمي وأبويا، لحد دلوقتي الخطة ماشية تمام".

***

جلست في مكتبها تفكر في خطتها، التي وضعتها للإيقاع بسعد الجرار، فهي قد سجلت له حديثه معها في السجن على انفراد دون علم سعيد، واستفزَّته للحديث عما قاله لأمها، بعد أن بدأت هي بفتح القديم كله، والآن تسعى للوقيعة بينه وبين سعيد، على أمل أن يقوم الأخير بالوشاية به لحمايتها وابنتها.

قطعت أفكارها صوت طرقات مهذبة على الباب، دلف الطارق بعد أن أتاه الإذن للدخول بصوت رقيق، وما أن خطا عدة خطوات داخل الغرفة، ليواجه نهلة حتى أتاه صوتها مندهشًا.

"مصطفى!"

اعتدلت في وقفتها بعد أن كانت منحنية على مكتبها تراجع بعض الأوراق.

"أهلًا بيك، اتفضل اقعد".

ارتبكت لزيارته المفاجئة لها في مقر عملها، أحسَّ بارتباكها فوضع كفه فوق كفيها المستندة على المكتب في رفق متمتمًا في اعتذار:

"آسف لو جيت فجأة بدون ميعاد، وسببت لك إزعاج، بس مكنتش هقدر أقابلك في فيلتك، الوضع محرج خصوصًا أنك لوحدك حاليًا".

سحبت نهلة كفها من تحت كفيه في سرعة، وأومأت برأسها متفهمة حال ما قال في هدوء:

"مشيت وراكي إمبارح بعد ما طلعتي من الفيلا، وعرفت مكان شغلك".

اقترب منها أكثر قائلًا في لهجة مفعمة بالرقة:

"نهلة، أنا محتاج إجابتك على سؤال مهم بالنسبة لي، خصوصًا بعد صلة القرابة اللي بيننا واللي قربتنا من بعض أكتر".

ابتلع ريقه الجاف في صعوبة ثم أكمل:

"أنا لسه ليَّا مكان في حياتك يا نهلة؟ يعني إنتي ممكن تسامحيني بعد ما عرفتي أني مظلوم، وأني حاولت بكل طاقتي تكوني معايا، ويمكن الظروف أنصفتني أنك تعرفي أني لحد دلوقتي مفيش واحدة قدرت تدخل في حياتي وتملاها غيرك".

رفعت عيناها لتواجهه في حزم قائلة:

"مصطفى، مفيش داعي للكلام ده بعد إذنك أنا ست متجوزة وإنت عارف، وكمان هنا مكان شغل ومش عايزة مشاكل".

تجاهل جملتها الأخيرة عمدًا وقال في حماس متوتر:

"أكيد عارف ومش قصدي أضايقك بسوء فهم، بس أنا عارف برضو أنك بتكرهي سعيد، مش معقول تكوني بتحبي واحد مجرم فاسد له سجل تهم تعفنه في السجن ١٠٠ سنة قدام، أنا عرفت أنه اتجوزك غصب ومش برضاكي، يعني مش معقول تكوني بتحبي شخص زي ده يا نهلة".

تقدم خطوتين ليواجهها بجسده قائلًا في حب:

"أنا عارفك كويس يا نهلة وعارف بتفكري إزاي، ومعتقدش أنك قدرتي تنسيني بسهولة، زي ما كان ليكي نفس التأثير عليا، أنا كمان تأثيري بان في نظرة عينك، لما دخلت عليكي الصالون في بيتنا وشوفتك، مش معقول أكون ترجمتها غلط".

تراجعت نهلة بجسدها للخلف قليلًا قائلة في هدوء:

"سعيد أبو بنتي وبس يا مصطفى، لا بحبه ولا بكرهه".

اطلق زفرة ارتياح عميقة تعبر عما جاش به صدره، وابتسم في جاذبية قائلًا:

"يعني مكانتي لسه محفوظة في قلبك يا نهلة؟".

قاطعته قائلة في رصانة:

"للأسف يا مصطفى القلوب مش عليها سلطان يقولك إمتى تحب وإمتى تسامح، إمتى تنسى وإمتى تفتكر، المكانة بتتغير لما القلب يؤمر والعقل يشجع، وإنت سيبت مكانتك من زمان يا مصطفى، وأنا قلبي مش فندق هتفضل أوضتك فيه محجوزة، وقت ما تحب ترجع لها".

"بس إنتي اتأكدتي أني كنت ضحية زيك، وإني لسه بحبك، يا نهلة صدقيني أنا...".

قاطعته في حزم:

"للأسف يا مصطفى قلبي مش بإيدي، وفيه غيرك كان هو الأحق به، مينفعش تدخل في مكان هو مش مكانك، ولا على اسمك".

ردد في سخرية وحنق:

"ويا ترى المكان ده على اسم سعيد باشا؟".

"لأ يا مصطفى، ده مكان لشخص تاني، ده مكان خالد".

اهتزَّت وهي تنطق اسمه، وبدا أنها تقاوم جروحًا تفتح في قلبها من جديد، فابتلعت الغصة المريرة التي ملأت حلقها في صمت.

اقترب منها مصطفى متسائلًا في غضب مغلف بالغيرة:

"خالد؟".

هزت رأسها تؤكد الاسم ثم أخذت نفسًا طويلًا وقالت:

"شخص قابلته يا مصطفى في أسوأ منعطف في حياتي، طلاق وفشل وهروب وجراح في كل ذكرى، قدر ببساطة أنه ينسيني كل حاجة، كل ألم عيشته وكل أثر لتجارب فاشلة، احتوى هزيمتي وضعفي، أخد وجعي وحزني ورجعهم ابتسامة وفرح، عمري ما عرفت معاني الحب والمشاعر الناضجة واختبرتها غير في وجوده، كنت فاكرة إعجابي بيك ده كان حب، ولما اتخليت عني اتقلب لكره وحقد على كل شيء حواليَّا، ولما اتجوزت

سعيد أحيانًا كنت بشوف منه وش طيب، واتأكدت أني نقطة ضعفه، فأوهمت نفسي أن فيه مشاعر له جوايا، وترجمت المشاعر دي برضو على أنها حب، بس لما قابلت خالد اكتشفت أني عمري ما عرفت ولا جربت الحب، حبه إداني طاقة أسامح بيها سعيد، وأقبله في حياة بنتي من غير ما أكون كارهاه، وأعتقد أنها هتكون وقاحة مني لو قولتلك أنه نساني أي حد قبله حتى إنت يا مصطفى، اتوقعت لما أشوفك تاني أكون بكرهك وبحقد عليك نتيجة مشاعري السابقة، بس العكس هو اللي حصل من قبل ما أعرف جزءك من القصة، وأنا مكنتش متضايقة منك، وكأن قلبي مبقاش فيه غيره".

التقطت أنفاسها أمام وجه مصطفى المشدود ثم أكملت:

"الشخص ده كان علاجي يا مصطفى، رجوعي لعقلي واتِّزاني وحبي للحياة كان بسببه هو، وجوده بس بينسيني ألد أعدائي، لو كان كل ألم وكل جرح هيوصلني لخالد في النهاية؛ فأنا لو رجعت بحياتي من الأول هقبل بأي تضحية، وأي تمن وأضعاف الآلام دي لمجرد أني أتكافأ بوجوده جنبي".

تمتم مصطفى بصوت حزين وهو يحاول منع عبراته من التكون في عينيه الخائبتين:

"ممكن أعرف عمل أيه عشان يستحق كل ده، أيه معجزاته عشان يستحقك يا نهلة؟".

تراقص شبح ابتسامة حزينة على شفتيها قائلة في ألم:

"السؤال يبقى العكس أفضل، عملت أيه أنا عشان أستحقه؟".

وتمتمت لنفسها في حزن وانكسار:

"وغلطت في أيه عشان يتاخد مني؟".

أمسك بمرفقيها في توسل واضح في عينه:

"إنتي متأكدة من مشاعرك دي يا نهلة، مش ممكن يكون برضو مجرد إعجاب، أرجوكي إديني فرصة أخيرة، وأوعدك مش هخذلك ولا أفرط فيكي أبدًا مهما يحصل".

أبعدت نهلة يداه عنها في رفق، وتكلمت بصوت مبحوح:

"متأكدة لدرجة أني بتمنى كل يوم أروح للمكان اللي هو فيه، بتمنى أرجع أسجل كل لحظة كان قدام عيني فيها، كل ابتسامة وكل كلمة".

رفع ذقنها إليه بأصبعه ليري وجهها الشاحب في وضوح، وقد ارتسمت على ملامحها مشاعر متناقضة من الحزن والألم والاشتياق.

"هو سابك يا نهلة؟".

أطرقت برأسها في الأرض وهي توماً بالإيجاب، تمنت لو تتعرى دموعها مجددًا حتى لو أمام مصطفى فألمها الجاف لا يكفي، وهي في أمس الحاجة لعبرات تطفئ ولو قليل من لظى النيران داخلها.

"سابك وسامحتيه، ليه مش قادرة تديني فرصة تانية رغم أني متأكد من كلامك أنه لو رجع هو هتديله الفرصة دي".

"متقلقش يا مصطفى الشرط ده مش هيتحقق، لأنه مش هيرجع تاني".

اقترب منها في يأس لفهم ألغازها ورفع وجهها مرة أخرى بيده، ليرى عينين ذابلتين تجاهدان كي تبكيا دونما فائدة.

ابتسمت في ألم على الرغم منها قائلة:

"متتعبش نفسك معايا أنا متأكدة من مشاعري كويس، لأني على الرغم من الثلاث سنين اللي عدوا وما اتقابلناش فيهم ولو لمرة واحدة، إلا أني مش قادرة أتخيل فكرة أني روحي وقلبي يكونوا لحد غيره".

رق قلبه لحالها وهو يراها في هذا الوضع فقال على مضض:

" ده شخص مغفل أنه يضيع إنسانة زيك من إيده، أرجوكي إديني عنوانه أو رقمه، وأنا أعقله وأعتقد من تجربتي هيتعظ يا نهلة وهيرجع لك أكيد".

تلمست المكتب حولها لتستند عليه مرتجفة، فهي قد أحسَّت بالدوار يعتريها من جديد، والضعف يضربها بقوة، حاولت لم شتاتها قائلة وهي تحترق في كل حرف:

"الشخص اللي حكيت لك عنه يا مصطفى ده...".

بدأ قلبها في النقر بقوة، وكأنه يريد الصراخ بما يعتمل به فأغمضت عينها في تألم واضح:

"مات".

اتسعت عينا مصطفى المصدومتين، في حين تهاوت مشاعر نهلة عند قدميها، بعد أن اعتصرها قلبها عصرًا.

الأن أدرك مصطفى لمَ هي متأكدة تمام التأكد من مشاعرها؛ لأن هذا الخالد قد غادر العالم بأسره بلا رجعة، وأيقن في ألم أنه لن يستطيع أبدًا أن يفوز في مقارنة مع شخص ميت قد نال قلبها وبجدارة، تتضح في وجهها الذي شحب لدرجة البياض، وفقد دمائه على إثر ذكره.

لوى مصطفى شفتيه في يأس، واستدار ليرحل بعد أن تركت نهلة المكتب في سرعة وتخبط.

"تلك معركة خسارة يا مصطفى، الموتى يكسبون دائمًا يا صديقي".

هكذا وبخ نفسه في حزن، وهو يركب سيارته مخلفًا نهلة التي تقوقعت على نفسها مرتعشة الأوصال في حمام الشركة، وقد هاجت بداخلها ذكريات كالأفاعي. تسممها في تلذذ وتطعنها بلا خناجر.

***

جلست نهلة أمام مديحة أرملة زاهد قائلة في حزن:

"ما تقلقيش يا طنط مديحة، كل مصاريف ولادك عليَّا أنا بشتغل وباخد مرتب كويس، ومش هنساهم أبدًا وقريب بإذن الله هيكون ليَّا ميراث شرعي، وهيكون لولادك جزء منه تعيشون به مرتاحين، ولاد زاهد في رقبتي ليوم الدين".

هزت المرأة رأسها في تحسر، وقد اندفعت الدموع من عينها في غزارة:

"ربنا يخليكي يا نهلة هانم، سعيد باشا مقصرش معانا من يوم اللي حصل، ربنا يزيده ويطلعه من سجنه على خير، ده اهتمامه بينا زاد، وكل طلباتنا مجابة والحمدلله، تشكري يا بنت الأصول".

امتعضت نهلة من كلامها رغمًا عنها خصوصًا عند ذكر مساعدة سعيد لهم، التي تعرف هي جيدًا مصدر تلك المساعدات، لكنها تعلم أيضًا أن مساعدتها البسيطة لن تصمد أمام مساعداته السخية، فالجميع ممن حولها لن يهمه أن يسأل عن أموال سعيد وهذا ما يؤلمها.

أنهم يظنون كلامها تشدقًا وشعارات ليس إلا، لا أحد يعلم أن نهلة هي من تساعد نفسها من مرتبها، ولا تتقبل أية أموال من سعيد، نهلة هي من تخشى حرمانية هذه الأموال ولا تستسيغها.

لم تستطع أن تتفوه بتلك الكلمات لمديحة أرملة زاهد، فاحتفظت بها لنفسها، على أمل أن تنقذهم جميعًا يومًا ما... من براثن سعيد ومستنقعه الحرام.

***

"يزيد الخجل جمال الورد جمالًا،

فتغدو ثمار خديه لخالد حلالًا".

***

الفصل الخامس

"مدام نهلة فيه زيارة ليكي من آنسة رغدة الجرار يا فندم".

انتبهت نهلة لصوت أحد الحراس، الذي انبعث من الجهاز الداخلي للفيلا، وفكرت في استنكار ما قد يكون سبب زيارة رغدة لها، والآن بالأخص؟!

"خليها تدخل يا عصام".

انتهت من تغييرها لملابسها وولجت لغرفة الصالون، عندما اصطدمت عيناها بالمرأة الواقفة في منتصفها في حالة مزرية، فالماثلة أمامها ليست رغدة المشهورة بأناقتها ورقيها وهندامها، كانت في حالة يرثى لها، وقد شحب لونها وانتفخ ما تحت عينيها وأسودَّ، بيد أنها لم تنم منذ أيام.

جلست نهلة في مقعدها، وأشارت لها بالجلوس لكنها رفضت متمسكة بوقوفها رغم ارتعاش قدميها الواضح جليًّا.

بدأت ترتسم على وجه رغدة نظرات العدائية والحقد، وقالت وهي تضغط بأسنانها على كل حرف، وكأنها قد سجلت إسطوانة كاملة وضغطت زرها للتو:

"إنتي إزاي لسه عايشة مبسوطة وبتضحكي، لسه فيكي قوة رغم اللي حصلك".

"ليه ظهرتي في حياتنا تاني، ليه مش عايزة تسيبينا في حالنا، أنا بكرهك وطول عمري بكره كبرياءك وغرورك، رغم فقرك وهدومك الرخيصة كنتي دايمًا بوصلة جذب للناس اللي حواليكي، ليكي تأثير عليهم في حضورك وغيابك، الصغير والكبير بيتكلم عنك... نهلة... نهلة... نهلة، بكره اسمك، وكنت بتمنى أجيب مناخيرك دي للأرض، حتى سعيد... سعيد اللي كانت عيني عليه سابني، أنا بنت شريكه وراح ركع قدامك، واتطلقتي وكنت أول الشامتين فيكي، وسعادتي كانت بالدنيا، ولما سافرتي وغورتي من هنا قلت أحسن أهو تدوقي مرمطة الغربة، بس للأسف رجعتي وفي إيدك خالد بيه الزيدان، اللي ما تحلمش واحدة زيك تنطق اسمه حتى في خيالها، وسعيد غار أكتر والاتنين بقوا تحت رجليكي، وكرهي ليكي وحقدي زاد، واتمنيت موتك أو قهرتك، وربنا حقق لي ده لما ماتت أمك وشفت حالتك، وإنتي شبه الجثة وده بالنسبالي كان أفضل من موتك، وموت خالد كان الهدية السماوية، وسعادتي زادت وإنتي بتتقطعي من جواكي كل يوم".

ابتسمت في شماتة جنونية ثم أكملت وهي تحرك يدها بعصبية:

"عارفة أفضل جزء في القصة أيه؟ أن أنا سبب جنونك وفقدانك لعقلك ووعيك طول الوقت، شكيتي في كل اللي حواليكي خصوصًا سعيد وبابا، بس ذكاءك الخارق عمره ما كان هيوصل أني أنا اللي اتَّفقت مع الدكتور ده بالذات، وأنا اللي رشحته لبابا هو والممرضتين، كل ده تخطيطي أنا وبس، هو طبعًا كلفني كتير... كتير أوي بس مش خسارة فيكي يا نهلة هانم، دوا الانفصام كان ترشيحي عشان أخرتك الحتمية تكون الجنون، لأنك فعلًا تستحقيها... زي أبوكي اللي قتل أمي".

التقطت أنفاسها وهي تكمل في وحشية، متجاهلة تعابير وجه نهلة المتألمة، وكأنها تزيد من لذتها بالحديث:

"وعقلك طار زي المجانين وبقيتي متدمرة نفسيًا، وده الحقيقة كان بيرضي غروري، اللي اتأذى سنين من غرورك، ومن أنك دايمًا بتاخدي كل حاجة عينك بتقع عليها، وشيطانك صور لك وزين لك أنك ممكن تتحدي بابا، وإنتي محتمية بسعيد باشا اللي بقى مجنونك الرسمي، أنا زورت بابا في السجن، وحكى لي على كل حاجة، وعرفت أد أيه إنتي شخصية مريضة نفسيًا بتتلذي في تدمير حياة الناس، وبتحقدي على نجاحهم وثروتهم، لمجرد أنك فاشلة فقيرة عايشة على عرق الرجالة اللي بتتجوزيهم، معتمدة في كده على جمالك وأساليبك الرخيصة، اللي كنتي بتنصحيني أبطلها، وإنتي بتمثلي دور القديسة و...".

لم تحس نهلة بيدها التي قاطعت رغدة في جرأة، وانهالت على وجهها بصفعة قوية، جعلت الأخيرة تترنح في ذعر مندهشة.

استمرت عينا نهلة في مواجهتها رغم تخبط رغدة في الغرفة، وهي تحدث نفسها في جنون قائلة:

" إنتي بترفعي إيدك عليَّا، إنتي متعرفيش أنا مين، أنا رغدة الجرار، أنا ستك وتاج رأسك، أنا كنت حامل، وكان هيبقى عندي أجمل طفل في الدنيا، بس ضربني وأجهضني وهرب، سابني وهرب، كنت بموت، أنا رغدة الجرار يسبني إزاي، وإنتي إزاي تهينيني... إنتي السبب في كل حاجة وهتموتي يا نهلة، أيوة هو ده الحل الوحيد".

عادت نهلة لتجلس في مقعدها غاضبة، وقد أرهقها ما سمعته منها، وما دفعتها لفعله وأحست بالدوار مجددًا، في اللحظة التي اقتربت رغدة من حقيبة يدها وأخرجت في سرعة وارتباك ما كانت تخفيه، اتَّسعت عينا نهلة في ذهول، وهي ترى يد رغدة المرتعشة ممسكة بمسدس له ماسورة طويلة موجهة إلى صدرها.

لم تستمع رغدة لكلام نهلة ولا لنصائحها، وكأنما صمت آذانها فضغطت على الزناد، لتنطلق منه الرصاصات.

واستقرَّت إحداها بجدارة بعد ما اخترقت الجسد بقوة...

ولكن ليس جسد نهلة...

إنما جسد الصغيرة دانا التي اندفعت خائفة للتو، عبر الباب المفتوح إلى غرفة الصالون، نحو أمها الجالسة على المقعد، تتبين سبب الصوت العالي والضجيج المنبعث منها.

استكان الجسد الصغير بين يدي نهلة، التي حدقت في صغيرتها ذاهلة، وضمتها إلى صدرها صارخة:

داااااااااانا

أصيبت رغدة بالذعر، عندما رأت الدماء المتدفقة تسيل من جسد الصغيرة على السجادة أسفلها، فألقت بالمسدس على الأرض، وركضت هاربة في جنون هيستيري.

***

" نهلة، اسمعيني كويس، فيه طيارة خاصة هتاخدك إنتي ودانا حالًا لأمريكا، المحامي كلم المستشفى وحجز لكم كل حاجة، أرجوكي حاولي تتماسكي لحد ما أطلع، علاء المساعد بتاعي معاكم ومش هايسيبكم لحظة، أنا أسبوع بالكتير وأحصلك، أنا رتبت أموري وهخرج خلاص، وقسمًا بالله ليدفع سعد الجرار تمن اللي عمله غالي".

كانت نهلة ممسكة بسماعة الهاتف، تنصت لسعيد في انهيار، فلم يعد لديها ما تعقب به.

"على فكرة رغدة ماتت، أنا جالي الخبر من ساعة، بعد ما هربت من الفيلا خايفة بجنون من اللي عملته خبطتها عربية واتنقلت للمستشفى، بس حالتها كانت صعبة؛ لأنها مرت بإجهاض من كام يوم، على العموم لو مكنتش ماتت كنت أخدت روحها بإيدي".

ابتلعت نهلة مرارة الآلام في حلقها، وهي مغمضة العينين فلم يكن موت رغدة ليريحها ولا ليسعدها، بالعكس هي ترثى لحالها، وتتألم لموتها بهذه الطريقة، وهي وحيدة منبوذة وحاقدة.

فرغدة هي أيضًا ضحية لتربية وتصرفات سعد الجرار، فقد غذاها بالكره والحقد منذ أن كنت صبية صغيرة تلعب معهن، وها قد كبر الكره معها حتى أعمى عيناها عن الحقيقة.

"الموت يا نهلة يحصد الأرواح من حولك، فهل هكذا ستكون لعنتك؟!".

وضعت سماعة الهاتف ثم عادت في خطوات كهلة، تنظر من الزجاج الخارجي لطفلتها الراكدة على سرير المستشفى في العناية المركزة، وقد خرجت من جسدها عدة خراطيم موصولة بالأجهزة.

تذكرت كلمات الطبيب التي لم تمنحها إلا شعورًا بالضياع، وهو يصف مدى خطورة موضع الإصابة جوار القلب، ومدى خطورة استخراجها لصغر سنها.

نفذت الرصاصة من ظهر دانا لقلبها، عندما ركضت الصغيرة لاحتضانها على مقعدها، خائفة من الصراخ والضجيج المنبعث من الغرفة، ولم تلمح رغدة الواقفة في أحد أركانها، وقد انطلقت رصاصتها لتصيبها خطأ من ظهرها، كم تمنت نهلة لو استقرَّت في قلبها هي بدلًا من صغيرتها الرقيقة.

أه لو تفدي كل أحبتها لينعموا بما لم تنعم هي به...

الأمان!

أمريكا / أوهايو

كليفلاند كلينك / قسم طب و جراحة الأطفال

٨:٣٠ ص

فتحت نهلة عينيها في تكاسل، لتتبين الصوت الرجولي الذي يعمل على إيقاظها، لتجده علاء المساعد الخاص بسعيد، الذي لم يفارقها منذ وصولها أمريكا منذ ثلاثة أيام لحتى هذه اللحظة، فركت عيناها ببطء وتأملت ما حولها من جديد فهي لم تغادر المستشفى بعد، نظرت ليد المساعد الممتدة أمامها بالقهوة فشكرته قائلة:

"أنا متشكرة جدا لوقوفك جنبنا يا علاء رغم أني عارفة أن ده شغلك بس تعبك معانا فعلًا، جدير بالشكر وأشكرك لمشاعرك الطيبة وقلقك على دانا، بس أرجوك ارجع الفندق ارتاح شوية، وده مش رجاء اعتبره أمر مني، إنت فهمتني أن كل طلباتنا مجابة فأرجوك وجودك دلوقتي مش مفيد لأي حد فينا، وإنت شكلك تعبان ومجهد، وأنا معنديش طلبات في الوقت الحالي، زي ما إنت شايف أنا مقيمة في جناح مش غرفة عادية".

حاول الرجل أن يعترض فقاطعته قائلة في حزم:

"أنا كده هشتكي لسعيد منك"، ومنحته ابتسامة عذبة فأومأ برأسه موافقًا على أن يعاود المجيء غدًا في الصباح الباكر.

أمسكت نهلة بكوب القهوة تلفه بين يديها في حركة شبه هائمة، وهي تفكر هل ما حل بابنتها هو عقاب من الله على أفعال سعيد، أم على سنوات عاشت معه تأكل من أموال حرام متغلغلة بتجارة الأعضاء والسموم؟

لكني لم أكن أعلم يا الله، فهل على جهلي سأعاقب أم هل كنت فعلًا مذنبة كما أدَّعت رغدة؟ أيمكن أن يعد الكبرياء ذنب؟ هل الكرامة من إحدى الكبائر؟ كيف أُتَّهم بالجرم لمجرد أنني لا أحني رأسي كالبقية.

هل كنت أحيا على أموال الرجال الأثرياء؟ ولكنني رفضت مال سعيد، ومساعدة خالد لتكاليف عملية أمي، هل كنت بتلك الأنانية حقًا ولا أدري؟

ارتشفت بعضًا من قهوتها التي يشبه طعمها، طعم أيامها المر ثم دلفت لجناحها، وجلست على فراشها تقرأ بعضًا من القرآن حينما صرخ عقلها:

"إنتي هنا الآن بفضل سعيد وأمواله الحرام، أتحرمين على الجميع أمواله وتعالجين ابنتك منها، المبدأ لا يتجزأ يا نهلة".

أغلقت الكتاب الشريف ونهضت تنظر من النافذة والحزن ينهش بقايا الوعي فيها، إنتي بين المطرقة والسندان... جحيم إصابة ابنتك ونار ضميرك اليقظ، هل ستعالجين ابنتك بأموال قدت من أعضاء بشرية؟ هل ابنتك أفضل من الجميع؟

مسحت وجهها في ألم، وهي تعاني صراعها الداخلي، ذهبت للحمام توضأت ووقفت لتصلي، أطالت السجود تسأل الله فيه الاستخارة وتدعوه الدعم والمؤازرة.

انتهت من صلاتها، فخرجت لتنظر إلى صغيرتها من الزجاج الخارجي كما اعتادت خلال الثلاثة أيام الماضية، تحدثت قليلًا مع طبيبها المختص، الذي أجابها أنه ينتظر استفاقتها بعد نجاح عملية استخراج الرصاصة، وأن تلك الغيبوبة من المفترض ألا تدوم أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، وها هي تنتظر بنفاد الصبر.

تمنت لو كانت أمها بجوارها... لو سترت حزنها وألمها في أحضانها، فموت الأم كتعرية الجسد، الذي ظل على طهارته كثيرًا.

" لا تدعني يا الله، فأنا لم أدع ذكرك قط في أحلك مواقفي وفي أسعد لحظاتي، كن معي كما كنت دائمًا أحسن الظن بك".

امتدَّت يدًا من خلفها بكوب آخر من القهوة، فاستدارت في حدة لتعتب على علاء الذي لم يغادر بعد.

"لسه برضو ممشتش يا علاء، إنت...".

انقطع صوتها واتَّسعت عيناها عن آخرهما، عندما أبصرت الواقف أمامها الذي قال في هدوء:

"من متى بتشربي القهوة سادة، آخر مرة أتذكر أنها كانت زيادة".

ارتعشت يدها في صورة ملحوظة، وبدأ صدرها في الصعود والهبوط بطريقة جنونية، أن نوبتها على وشك العودة وبكل قسوة، بدأت أنفاسها في الاختلاج حينما وضع الرجل كوب القهوة على المقعد، الذي يجاوره في سرعة، وانحنى يلتقط نهلة التي أغشى عليها بين يديه.

الفصل السادس

أفاقت نهلة من إغمائها لاهثة، وكأنها تفر من ذكريات تبعث من جديد، نهضت على حذر ثم فتحت عينيها تتبين الفراش الراكدة فيه، جلست على طرف فراشها، تؤلمها رأسها بشدة في حين لمحت حذاء الجالس أمامها على مقعد وثير بجوار سريرها، رفعت رأسها ببطء تخشى المواجهة مرة أخرى، قلبها يدق بسرعة وعقلها يعنفها، تأملت ما فوق الحذاء وهي تتأهب للصدمة من جديد، بزة رمادية داكنة ورابطة عنق حمراء، ذقن مدببة ولحية كثيفة قصيرة يتصل بها شاربه، أنف مستقيم شامخ و...

توقفت لحتى التقت عيناها بعينيه فتحجرتا، تحشرج صوتها وهي تتمتم:

"إزاي، إزاي".

رفعت يدها تغطي فمها وهي تتلعثم في كلماتها وتحدث نفسها:

"يعني حي، لا لا مش ممكن، أنا بطلت أدوية وبقيت كويسة، دي أكيد تخيلات، متقلقيش يا نهلة شوية وها يختفي".

حادت بنظراتها عنه على أمل أن يتلاشى أو تتبخر صورته كما اعتادت في كل مرة، ونهضت من فراشها لتخرج من الغرفة، حينما امتدت يده لتمسك بذراعها في قوة قائلًا في لهجة آمرة:

"استريحي نتكلم، أني مو ميت أني مازلت حي، إنتي تشوفيني حقيقة".

زفر في قوة ثم نظر لها في صرامة قائلًا:

"أرجوكي ما تمثلي علي الحين أنك موجوعة لموتي، ما تنسي أنك حين اتيقنتي من هذا ما درتي لحظة ورميتي نفسك في حضن سعيد، الحقيقة أنك ما تتحملي تعيشي من دون رجل ثري يحققلك طموحاتك يا ست نهلة، وأظن سعيد احتوى ها النقص فيكي، ما كان في نيتي أظهر في حياتك مرة ثانية، بس للأسف خطتي كلها خربت بسبب إصابة دانا اللي ما كانت في توقعاتي، وما اتحملت أعرف هذا وما أجي، حتى لو فيه انكشاف لشخصيتي وخطر على حياتي".

رفعت عيناها تواجهه ولكن غشيهما الدموع فرأته مهزوزًا، تلمست يدها وجهها في دهشة.

الآن يا خالد الآن فقط هطل مطري، وقد ظننته نضب للأبد.

ابتسمت في ألم، ومسحت دموعها فأحسَّ خالد نحوها بشيء من الشفقة، ما لبث أن أماته في سرعة.

حدثت نهلة نفسها وكأنه ليس موجودًا بالفعل:

"كل لحظة وكل ثانية بكيت فيها واتوجعت وقلت لنفسي إنتي السبب في موته، عشان ظهرتي في حياته لو مكنش عرفك مكنش مات، كل يوم عشته وحيدة مكسورة بكلمك في أوراقي ورسايلي مع نفسي، بضحك معاك وأنا ببكي من جوايا، كل مرة بتهز فيها لما أسمع اسمك، كل ده وهم وإنت عايش، كنت عارف أني بتعذب وساكت".

انهمرت الدموع على وجهها ساخنة مالحة تكوي جراحًا ظنتها مخدرة في حين وضع خالد يده بجواره في حركة عصبية يمنع نفسه من القيام لمسح دموعها، ثم اعتدل جالسًا ليقول في غضب محكم:

"لا تقولين أنك ما تتمتعي مع سعيد، هذا كذب ما يليج بيكي يا نهلة، أنا عرفت أنك سافرتي معه باريس، وكررتي شهر العسل، وتسكنين فيلا جميلة تليق بويهك الكاذب".

نهض من مقعده فجأة، واتَّجه للنافذة يزيح ستائرها في محاولة للتحكم في غضبه، وأدار لها ظهره وهو يقول:

"بس ما تنكرين أني ساعدتك وايد بغيابي، جمعتك بحبيب القلب القديم مصطفى ، عرفتي هويتك الحقيقية... من أبوكي ولوين صار، أني اللي كنت برسل لك مو محمد يسري، وعيتك أن لك ثروة وميراث لابأس به، في حين لو كان رجوعك لسعيد لاجل الغوازي، فتحت لك باب ثاني ترزقين منه بلا ذلة ولا دعس كرامة".

تجمدت ملامح نهلة الجالسة كما هي على طرف السرير، بدأ عقلها يئن، فرفعت يدها الاثنين تحمي أذنيها من الطنين القوي في رأسها، حينما استدار خالد ليواجه صمتها قائلًا:

"ايش بك، ناوية تقعي مرة ثانية، ولا هذا تمثيل لأترفق بحالك، ما عادت حيلك تنطلي علي يا بنت مصر، عيب الشوم على ها الويه الملاك، دموع زايفة وجنس رخيص".

أمعن النظر فيها من رأسها لقدميها، وهو يكبح رغبته في ضمها إليه بشدة، وقال في حدة:

"ثلاث سنوات درتك وما فكرتي إلا من ست شهور ترسلي محقق يعرف لك أخباري، ويتأكد من موتي لهلا تسوي ما بدك وتستبدلي خططك بالبطل الجديد، بس الحجيجة كنتي أذكى مما أتوقع... تمثيلك فاق الحد يا ست نهلة، ما طولتي بعد موتي، وخلاف رجعتي للباشا تنعمين في أمواله الحرام، اللي ما تهمك مصادرها أد ما تهمك كثرتها، أنا ما جيت أشوفك ولا تفرجين معي، أنا جيت أشوف دانا اللي صارت ضحية قذارتكم وأنفسكم الخبيثة".

حبه لها غلب كذب كلماته، وهو يعلم جيدًا أنه يحترق شوقًا للقائها وجهًا لوجه، رغم مراقبته لها طوال السنوات الماضية واهتمامه بأخبارها.

أغضبه صمتها ودموعها المتلاحقة، فاقترب منها وأوقفها من ذراعيها بقوة، صارخًا فيها وهو يلتهم وجهها بعينيه:

"جولي شيء، لا تصمتين، جولي أرغموكي على هذا، جولي حبيته ووجدتي السلوى بين ذراعيه، قولي كذبتي علي".

لف خصرها بأحد ذراعيه، ليسندها ويقربها منه قائلًا في ألم:

"اكذبي علي، جولي كنتي ضحية، جولي حبتيني أنا، ما فكرتي غير فيني ، انظري لعيني وواجهيني، أنا بدي الحين أقتلج وما تعاودي له، أخنج أنفاسج وأشوه ملامحج البريئة الخاينة، جولي ما لمسج حد من بعدي خصوصًا ها الكلب، جولي ما اتمتعتي بين ذراعه".

"آه لو تعلم يا حبيبي أنه لم يمسني قط منذ طلاقي منه قبل أن ألقاك حتى".

قالتها عيناها لعيناه في عتاب يشوبه الألم، تلاقت نظراتهما في شوق بالغ، انسلَّت نهلة من إحكامه عليها وغادرت الغرفة متخبطة متجاهلة ندائه لها، حينما اصطدمت بالمرأة الوالجة إلى الغرفة، التي تبين أنها إيمان أختها.

نظرت نهلة لإيمان بأعين زائغة، عندما قالت الأخيرة في سرعة:

"نهلة إنتي كويسة، ألف سلامة على دانا، سعيد جبنا كلنا هنا على طيارته، سلمي ومعتز وهشام نزلوا على الفندق، أنا مقدرتش استنى أجيلك وأعتذر لك، أنا آسفة يا نهلة على كل كلمة قولتها في حقك، ندى حكت لنا على كل حاجة، ليه خبيتي علينا أن زاهد مش أبوكي، وأن سعد ده كان مجرم في حق أمي قبل حقنا، ليه خبيتي كل ده واتوجعتي لوحدك، أنا آسفة يا نهلة، سعيد قال لنا على رغدة وموضوع الأدوية اللي كنتي بتاخديها، أنا مش عارفة أقولك أيه، سامحيني".

احتضنتها إيمان في قوة محاولة منها لتخفيف الألم البادي على وجه نهلة، الذي جعل الدموع تنهمر بلا رادع، اصطدمت عينا إيمان بالرجل الواقف أمامها خلف نهلة بجوار الفراش ساكنًا، وفغرت فاهها في ذهول بعد أن بدأت في التعرف عليه، رغم التغير الواضح في ملامحه، ثم تحركت باتجاهه مشيرة لنهلة في تساؤل وقد ألجم لسانها.

وزعت نهلة نظراتها ما بين الاثنين في شرود مغلف بالضباب، فاستطردت إيمان في تلعثم قائلة:

"نهلة، هو مش ده؟".

هزت نهلة رأسها والألم يكسو معالم وجهها البريء، وبدا لأختها أنها ستقع أرضًا، فاقتربت إيمان منها وضمتها إليها قائلة:

"نهلة، أنا نسيت أقولك على حاجة مهمة، إنتي ربنا بيحبك وأخد لك حقك وحقنا كلنا من المجرم اللي ظلمنا، سعد الجرار يا نهلة اتقتل في السجن، بيقولوا أن شركاءه في جرايمه هم اللي اتخلصوا منه وال...".

لم تستطع إيمان أن تكمل جملتها، وقد رأت معالم الذعر والاستنكار تكسو وجه أختها، فقد أزاحت يدها عنها في خوف، وبيد أنها على وشك الانهيار، فهي تهز رأسها بعنف، وتضع يدها على أذنيها بقوة وتهلوس بكلمات مضطربة:

"كفاية دم... كفاية قتل... حرام عليكم"

اقتربت منها ايمان لتهدئتها، لكنها دهشت من تراجعها للخلف ونظراتها الزائغة لخالد، ثم ركوضها بأقصى قوتها تعدو الطابق الذي يقفون فيه.

حاول خالد اللحاق بها ومن وراءه إيمان، لكنها أطلقت العنان لساقيها وهي تصرخ:

كفاااااااية، كفاية، سيبوني لوحدي

أوقفت نهلة سيارة أجرة وانطلقت بها مسرعة، في حين عاد خالد لإيمان وطلب منها الانتظار في المستشفى لحين عودتهما، ركب في سيارته على عجل وانطلق مسرعًا ليحاول اللحاق بها.

ظلت نهلة تهز رأسها بعنف داخل السيارة، مما أخاف السائق بعد فترة من متابعته لها، وطلب منها النزول بلطف، ترجلت من المقعد الخلفي، وانخرطت داخل الزحام لا تدري إلى أين تقودها قدماها الهاربتين.

***

إن أردت الانتقام فقد فعلت

لا شيء آلمني كمثل لقائي بك

والله يشهد أن قلبي لم يخن

وأنني لا أزال كعهدي بك

أتت سهام عداوتي من الجميع

آمنت ركنك فلم أكن أهاب منك

ظننت يدك في نزيفي تداوني

فهوت خناجرك على ظني الأخير بك

***

جلست نهلة على مقعد شاغر رأته على رصيف يواجه المحلات التجارية، وهي لا تدرى إلى أين قادتها قدماها، لم تكف عيناها عن الدموع بعد، وكأن أرضها البور لم ترِ كفايتها.

أحسَّت بالتعب الجسدي والنفسي قد هوى بكاهلها، فتمددت على جنبها الأيمن، ضامة رجليها لصدرها تلفهما بذراعيها، وكأنها تحمي نفسها مما يحدث.

أغمضت عينيها وهي تتخيل بيت أمها... غرفتها وفراشها، هي الآن هناك تنام في نفس موضع أمها، سرقها الوقت فلم تدرك كم مر منه، فتحت عينيها لترى وجوه المارة المستنكرين لفتاة محجبة نائمة في مقعد عام كالأطفال.

عاونت نفسها على النهوض، حينما مدت لها يدًا يعرفها قلبها جيدًا، ابتلعت ريقها الجاف، دونما النظر إليه ونهضت بمفردها.

"ليش هربتي، ما تحملتي سماع موته، ولا ترين أنه ما يستحق الموت؟".

رفع وجهها إليه بإصبعه وأدارها في مقابله وقال متهكمًا:

"أتعجب أمرك، تكرهينهم لكن ما تسري لموتهم، يمكن أني الوحيد اللي سررتي لموته".

أزاحت يده في عصبية، وأكملت طريقها حينما أوقفها بقوة، غارزا أصابعه في ذراعيها:

"دافعي عن نفسك ولو بكلمة ولا تريقي ماء وجهك لهذي الدرجة، شو بكي، قناعك سقط ولا تمثيلك ما كفا ووفا معك".

رفعت عيناها تواجهه في عتاب قاسٍ دونما رد، لكنها لم تجد سوى السراب، تحاشى نظراتها وأزاح يده عن ذراعيها قائلًا في سخرية:

"الحجيجة لازم أعترف، أنه مازال لك تأثير علي، ويه الملاك هذا اللي حباك به الله ما بطل مفعوله بعد".

لمحت نهلة بطرف عينها عرجة بسيطة في ساقه اليمنى، لربما لهذا السبب لم يستطع اللحاق بها في سرعتها، وهي راكضة من المستشفى.

انهمرت الدموع من عينيها، وتمنت لو احتضنته كثيرًا حتى تذوب عظامها وخلاياها، تمنت لو جلست جواره تداوي آلامه... لو لمست وجهه ولحيته بأناملها، لو تركها فقط تلثم ساقه المتضررة.

رأتها عيناه وهي تتفحص ساقه، فقال في غضب محاولًا تغيير دفة الحديث لموضوع آخر:

"ما سألتي كنت وين كل ها الفترة، ولا ما همك تعرفين؟".

أدار لها ظهره قائلًا في عصبية:

"نجوت من الحادث بأعجوبة، كنت حي في جسد ميت متخاذل، أعلنوا موتي وأقاموا جنازتي، وتصدقين ما شفتك حتى فيها تكملين دورك في المسرحية، حين شاهدت فيديو جنازتي اتوقعتك منهارة تبكي دمعة أو حتى تظعي وردة على قبري، بس الواقع ما كلتي هم وحظرتي من الأساس، هاذي الدنيا تعلمنا لحتى نموت حجيجة اللي حولنا".

امتلأ صوته بالألم وهو يضغط على حروفه قائلًا:

"كل ما كنت أفيق من تخديري كنت أنادي اسمك، وسألت عليكي وايد... وايد وايد وكل مرة نواف كان يكذب، مرة يخبرني أنها بتزورك وإنت نعسان، ومرة هي في مصر تنهي أوراقها وهكذا، الكل كان يغطي على أفعالك، خلاف اجتهدت في علاج ساقي اللي كنتي بتطرقين بفضولك عليها من قليل، كان بدي أفاجئك وتفرحين لي وأقف عليها من جديد ولحين نجحت...".

شعر بالغصة تملأ حلقه، وهو يجاهد ليكمل كلماته:

"نواف خبرني برجوعك لسعيد، وأنك سعيدة في حياتك معه بعد موتي، كذبته وسافرت باريس أشوفك بعيني، وشفتكم إنتم الاثنين على الشاطئ يومها، وهو يلف خصرك بيده".

"غادرت كالحيوان المجروح بعد محاولة اغتيالي للمرة الثانية، نسيت أجولك أن هاذي تاني واقعة مدبرة لقتلي، بعد إثبات التقارير الجنائية لهذا، واستقريت هنيه في أمريكا بهوية جديدة عمار خلفان، وحاولت أنسى ويهك الخاين، ما رومت، جلبي سول لي أنك مغصوبة على هذا، لكن صوركم جالت العكس، ولولا حادثة دانا ما كنتي شفتي ويهي مول".

"تعرفي أيش اللي وجعني يا نهلة، أني فارس في تجارة الأعمال والمقاولات، أعرف الصفقة الرابحة من الخاسرة، الويه الكاذب من الصادق، لكني انغشيت مرتين والثانية كانت ألعن، لأني ظنيت أني أكثر نضوج وخبرة وما ينظحك علي".

التفت في غضب ليواجه صمتها المستفز، لكنه تفاجأ برحيلها إلى الرصيف الآخر، لم يستطع اللحاق بها وهي تعدو، مستوقفة إحدى سيارات الأجرة، ركب سيارته في سرعة، وهو ينفجر غضبًا من هروبها منه مجددًا.

توقفت نهلة أمام المستشفى، وركضت داخلها حتى وصلت لغرفتها الخاصة، أغلقت عليها الباب من الداخل، وطلبت رقم الاستقبال، لتبلغهم بعدم إرادتها لصعود أي فرد إلى غرفتها، حتى لو للطعام فهي لا تريد الإزعاج.

نظرت من نافذتها للخارج، الشمس على وشك المغيب، والظلام في طريقه للإحلال، لمحت في شرودها خالد، وهو يترجل من سيارته، أخفت وجهها خلف الستائر السميكة، وتأملت قدمه المصابة رغم أنه يقفز عليها غير عابئ بها، تدفقت الدموع من عينيها قوية فهي السبب في كل ما حلَّ به، سعد الجرار انتقم منها فيه ونجح في خطته بجدارة.

غاب دقائق فاطمأنت أن الاستقبال منعه من الصعود، لكنها فوجئت بمقبض الباب يفتح بقوة دون استئذان، وضعت يدها على قلبها من الخوف فملامحه وهو يترجل من السيارة كانت تستشيط غضبًا، وهو قادر على الفتك بها وبمشاعرها أيضًا، أتاها صوته قائلًا في حزم:

"افتحي الباب يا نهلة وإلا قسما بالله أكسره عليكي".

اتَّجهت للمقبض ويدها ترتعش حينما لفته ببطء، وأدارت به المفتاح، رأته من فرجة بسيطة في الباب بينهما، وقد صارت ملامحه أقسى رغم أنه مازال يتمتع بوسامته كاملة أن لم تكن قد زادت بمرور السنوات، شعره الأسود ما زال بجاذبيته الناعمة على وجهه، رغم أنه أكثر طولًا وقد خطا الشيب بعضًا منه فزادته سحرًا، تأملته في صمت عندما فتح الباب على مصراعيه، وركز عيناه على شفتيها المرتعشتين، اقترب منها حتى صار لا يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة، رفع وجهها إليه بإصبعه ثم وضع يده خلف ظهرها وضغطها إليه بقوة، تلاقت أعينهما في قسوة وعتاب... شد وجذب، ارتعشت بين يديه وأحسَّ بجسدها يتقلقل في ألم، ذابت نهلة في غمار ألمها النفسي والجسدي، ترنحت بين يديه والدموع تكسو وجهها، رفع إحدى

إصبعيه ومسح دموعها في رفق، اقترب بشفتيه من شفتيها موزعًا نظراته بينها وبين عينيها العسليتين، تجاوبت معه، لكنه توقف على بعد مليمترات من شفتيها وقال في قسوة:

"ما زلتي لها الحين لم تتغيري، تستخدمين جمالك

وجاذبيتك للإيقاع بمن حولك، أيش تظنيني مثل سعيد الكلب يسيل لعابي عليكي وإنتي خاينة، والله ما يصير".

دفعها عنه بعيدًا وغادر الغرفة دون أي كلمة أخرى، أغلقت الباب وراءه في ألم وتلمست يدها الحائط، تسندت حتى جلست على طرف فراشها، تقوقعت على نفسها مرة أخرى مغمضة العينين والدموع تبلل أغطيتها.

وماذا بعد يا الله؟! آلام في موته وآلام في عودته، علام العتاب وهو لا يصغي، امتلأ قلبه الأبيض بالانتقام فما عاد يراني...

أتساعدني يا الله، أتساعدني وأنا على وشك الضياع؟

فتحت عينيها فجأة، وكأنها تنبهت إلى فكرة ما، استجمعت إرادتها وعقلها وقررت أن تواجهه بكل ما أوتيت من قوة. فخالد لن يهدأ أبدًا ما دامت لن تدافع عن نفسها وتتخذ من الصمت درعًا وسبيلًا.

ستواجهه حتى وإن فتك بها، فهي لن تتركه للانتقام ينهش فيه.

ستحرره وأن قيدت يدها، لن تضيع خالد مرة أخرى.

****

الفصل الأخير

الخامسة عصرًا بتوقيت أوهايو

تطلعت نهلة في حب إلى صغيرتها الراكدة أمامها، وقد انبثقت من عينيها الدموع بغزارة، ولكن هذه المرة اتَّشحت دموعها بالفرح والسعادة بعد اطمئنانها على إفاقة ابنتها واستيقاظها من غيبوبتها القصيرة، التي بدت لنهلة وكأنها دهر لا يمر، اختبرت في تلك الأيام القليلة كل مشاعر الأمومة التي لم تعِها طوال سنوات عمر ابنتها السبع، كبرت أمام عينها في هدوء، ف "دانا" مثل أمها رقيقة الحال بسيطة الطبع، تأقلمت على هدوء حياتهما وصخب ذكرياتهما السابقة، لم تكن دانا بالفتاة المتطلبة أو اللحوحة كبقية فتيات جيلها ومن في مثل عمرها، وكأن ما مرَّت به قد منحها فوق أعوامها أعوامًا، فبدت في هدوء النساء ونضج الكهل، كانت تفهم نهلة من نظراتها فلم تعتد الإزعاج أو التطفل، وكأنها تقدر ما مرت به أمها وتتحمل جزء من مسئولياتها تجاه شفائها.

تأملت نهلة تقاسيم وجهها الصغير، الذي يحمل فتنة جميلة وجاذبية في نحته، دخل الطبيب للغرفة قاطعًا تأملاتها، وطلب منها الارتياح في غرفتها لحين انتهاء الفحص.

جلست نهلة على المقاعد الخارجية، وقد أسندت رأسها للخلف، وتنهدت في راحة شاكرة لله وقفاته معاها واستجابته لندائها على الدوام.

انتبهت عندما توقف أمامها أحد السعاة حاملًا معه ورقة صغيرة قد أرسلها شخص ما إليها، شكرته نهلة وفضتها لتقرأ ما فيها.

"جابليني يا نهلة عند المدخل الشرقي من جهة الحديقة".

دق قلبها بعنف وكأنها نسيت خالد في تلك الفترة، التي قضتها مع ابنتها داخل الغرفة، ابتلعت ريقها ونهضت لمقابلته، فهي قد اعتزمت مواجهته بكل ما يتهمها به، حتى ولو لم يصدقها، لكنها لن تتحمل أسلوبه الساخر المهين مرة أخرى.

تلفتت حولها عند المدخل الشرقي تبحث عنه حينما جذبها شخص ما فجأة من يدها، مشيرًا بإصبعه إلى فمه لكي لا تصرخ، فهمت نهلة من إشارته أنه يريد الاختلاء بها بعيدًا عن حارسي سعيد الواقفين أمام الكافيتريا، الذين تم تعيينهما أمس لحراستها، ولكنها تعلم جيدًا أنهما ليسا هنا إلا لمراقبتها.

تبعته نهلة رغم اندهاشها من مفاجأته، فالشخص الذي تتبعه الآن هو نواف وليس خالد!

دلف لإحدى الغرف الجانبية، فتبعته في صمت ثم أشار لها بالجلوس قائلًا:

"ما أدري أيش يقال في مثل هاذي الظروف، أبارك شوفتك وموت خالك النجس، ولا أعزيكي ولا أيش، والله ما أدري".

زفر في قوة ثم تجهمت ملامحه فجأة قائلًا:

"شوفي يا نهلة، أنا أقدرك وايد وإنتي تدرين هذا، بس إنتي ما تليقي بأخوي، ولم تنفع علاقتكم ولن تنفع مول، صدقيني، بينكم أنهار دم وموت ولن تجتمعوا إلا بكثير من الوجع والحزن، لحتى ما يروم أحدًا فيكم ينظر في خلقة التاني بعد، اسمعيني زين، خالد ما كان مقدر له يشوفك وهاذي كانت غلطة منه، وكشفه لويهه وهويته خطأ ما كان ينبغي له يفعله خلاف نحاسبه عليه، خالد مو ساذج بس إنتي نجطة ضعفة، وأنا ما أبي لأخوي نجاط ضعف، أشفق عليكي نعم، وأتمنى لك ولصغيرتك الخير كله، ولكن بعيد عن خالد، لأن ما أسمح تاني لأحد يمسه أو يكن سبب في أذيته حتى لو حد مظلوم مثلك، تجوم بنتك من ركدتها، وتأخذي حالك وترحلين على زوجك، ما أبي خالد ينخرط في قذارتكم، يكفي يا بنت مصر المشكلات اللي عانيناها من تحت رأسكم، هاذي المرة أتكلم بلساني وبالأدب، قسمًا بالله المرة الجاية ما تلحقي تتهني ببنيتك لو ما عقلتي زين وبعدتي عن أخوي".

نظرت إليه نهلة في تيه واندهاش، وكأنها قد يئست من وقوف العالم كله ضدها،حتى من أحبها ، خفضت بصرها والدموع تملؤهما، سحبت نفسًا طويلًا لتمنعها من الهطول أمامه، وقد أفضى بتهديداته في سخاء، رفعت

عيناها تواجهه فرأت عيناه تكتسيان بالصرامة والقسوة، لم يمنحها الوقت للرد إذ نهض فجأة من مكانه ورحل وكأنه لا داعي لسماع الرد.

مسحت وجهها بيدها في عصبية، واستقلَّت المصعد للصعود إلى غرفتها، جلست على فراشها ممسكة بكوب من الماء بين يديها، حينما اقتحم الغرفة فجأة شخص ما فسقط الكوب محدثًا ضجة على البورسلين، لم تهتم نهلة بالزجاج المتناثر تحت قدميها قدر اهتمامها بالشخص الواقف أمامها.

تحولت نظرات سعيد العدائية إلى البشاشة، وهو يمسك بيد نهلة ليعبر بها من بين الزجاج، طالبًا من خدمة الغرف تنظيفها حالًا، فحص نهلة جيدًا في اهتمام ثم احتضنها مطولًا، وكأنه لا يريد التفريط بها أو الافتراق عنها.

حاولت نهلة التملص منه، لكنه شدد قبضته عليها في إحكام، أزاحته قليلًا وهي تقول:

"حمدلله على سلامتك، ما بلغتنيش ليه بخروجك وسفرك".

قال في ابتسامة جذابة دون ترك خصرها من يده:

"حبيت أعملك مفاجأة، مش عارف فرحتي ولا لأ، بس أنا دخلت الجنة دلوقتي لما شوفتك وحضنتك بين إيدي".

قربها منه مرة أخرى والتصق بها قائلًا:

"٣ شهور بحالهم، مش بشوف عينك ولا أصحى على ابتسامتك، كنت بتمنى أخرج بس عشانك، وأحلم باليوم اللي يجمعنا سقف واحد، حتى لو قلبك لسه على قراره".

جذبت نهلة نفسها بقوة من بين يديه وارتدَّت للخلف قائلة:

"بس وشك ليه كان متغير أول ما دخلت الأوضة، حد ضايقك هنا قبل ما تدخل؟".

هز رأسه في إنكار فذكاء نهلة على وشك فضح ما يكنه، خصوصًا بعد ملاحظتها لوجهه المتجهم عند دخوله، فرؤيته لنواف خارج بوابة المستشفى يركب سيارته أيقظت في نفسه التساؤلات والاتِّهامات العريضة، فما سبب مجيء نواف لهنا... نفس الولاية ونفس المشفى!

ليس هناك إجابة سوى لقائه بنهلة، وهذا ما أزعجه وأثار غضبه، هناك ما وسوس في عقله أن يقتحم جناح نهلة دون استئذان، ليرى من معها في الغرفة، رغم علمه أن الشخص الذي يفكر فيه من المستحيل أن يكون على قيد الحياة.

هكذا ظن! لكن شيطانه لا يهدأ ورؤية نواف قد أيقظت عشرات الشياطين في رأسه.

أحسَّت نهلة بطول صمته، فأصابتها الظنون هي الأخرى أنه من المحتمل رؤيته لنواف فقد تصادف ميعاد الاثنين في ذات الوقت، هل من الممكن أنه رآه أم أنه علم بأمر خالد، وربما رأه أحد الحراس والتقط صورة له وأرسلها

لسعيد، ارتسمت ملامح التوتر على وجهها عند تفكيرها في هذه النقطة، فقطعت الصمت بقولها مغيرة حدة التوتر بينهما:

"عرفت أن دانا قامت بالسلامة، هي مش بتقدر تتكلم كتير بس بقت أفضل الحمدلله".

نظر لها في تفحص قائلًا:

"أه طبعًا عرفت لحظة ما فاقت، أنا متابعكم ومعاكم لحظة بلحظة يا نهلة، أي حاجة حصلت من وقت خروجك من مصر للحظة دي أنا عارفاها بالتفصيل".

دق قلبها في توتر، وتقطعت أنفاسها وهي تحاول جاهدة رسم ابتسامة مزيفة على شفتيها المرتعشتين، اقترب منها ممسكًا بكفها وعلق في دهشة:

"مالك يا نهلة، إيدك باردة زي التلج".

احتضنها في حنان قائلًا:

"ما تقلقيش خلاص، ارتاحي من اللحظة دي أنا هتولى كل حاجة، مبقتش فيه أي مسئولية عليكي، أنا خرجت يا نهلة، ارتاحي وما تضغطيش على أعصابك حبيبتي، أنا جنبك ومعاكي".

طرق على الباب خدمة الغرف، فتركها سعيد تنفلت من بين أحضانه على مضض، لتقف في ركن آخر بعيدًا عنه لكن عيناه لم تترك سنتيمترًا واحدًا فيها إلا والتهمته في جنون وجرأة.

فهو هذه المرة قد عزم على الرحيل معها وابنتهما إلى بلد آخر يجمعهم معًا دون أي أشخاص آخرين، سيختطفها لنفسه، سيحنطها له للأبد.

لن يتقاسمها مرة أخرى مع أختيها أو صديقاتها أو زميلات العمل، لن يعلم أحد مكانهما أبدًا فهو قد خطط لكل شيء في سجنه.

لن يكون أمام ناظريها سواه... هو... وهو فقط.

***

لست بدميتك كي أسجن

لن أرضى بقيودك أبدًا

إن تأسر جسدي فلتعلم

أن الروح أهم وأثمن

وأنا روحي لن تملكها

مهما فعلت ومهما تفعل

حاولت نهلة تجنب سعيد والتهرب منه طوال الوقت، فكانت أوقات تتحجج بالصلاة، وأوقات أخرى تنسحب من جانبه لتلوذ بغرفتها متظاهرة بالنوم والإعياء.

جلست على فراشها تفكر في حيل جديدة للفرار منه، حينما قاطعتها صوت خطوات قدميه خارج الغرفة مقتربًا من الباب، فجسده الضخم يحدث صوتًا قويًا على الأرضية، تنبهت إليه جيدًا طوال اليوم لتفلت من بين قبضته.

نهضت في ثانية واتَّخذت وضعية الصلاة، حينما ارتجف جسدها لدخوله الغرفة، أحسَّت بجلوسه في المقعد خلفها، لا ريب أنه يتأمل كل جزء فيها الآن من قمة رأسها لأخمص قدميها، توترت في صلاتها المزعومة، وانحنت للسجود داعية الله في نفسها:

"سامحني يا الله، لم أجد وسيلة غيرها للهروب منه، إنت تعلم أنني لم أريده سابقًا ولن أريده الآن، رائحة جرائمه في كفيه يا ربي، أشتم رخص الصفقات في جسده حينما يضمني، إنت تدري أن كرهي له ليس بسبب عودة خالد، وأنني أردت الانفصال عنه من قبل ذلك عندما علمت بفساده، ونفذت كلامي لكنه هددني وابتزَّني بصفقته، هددني بأخذ ابنتي مني يا الله، وبإطلاق يد الجرار تعبث في أحبتي وأصدقائي، هددني بقتل أبي الذي لن يلاحظ اختفاءه أحد على حد قوله، استغلَّ ضعفي وخوفي على المحيطين بي؛ ليرغمني على العودة إلى أسره بكل رضاء، اللهم أنه لا يضيرك فلا تمكنه مني، إنت تعلم أنني لم أضعف أمامه، ولم أستسلم له حتى في غياب خالد، إنت تعلم أنني طاهرة لم ولن أحيا على أموال حرام، ولن أدخل جوفي شيئًا منها، فأعني يا معين وأغثني من تحت يديه".

أجفلها نحنحته بصوته الأجش، عندما أحسَّ بإطالتها للسجود وتباطؤها في الصلاة عمدًا، نهضت وأكملت صلاتها حينما رن هاتفه عاليًا، فالتقطه وسمعت صوت الباب ينغلق من خلفها.

أنهت صلاتها وفتحت الباب برفق شديد، فلمحته جالسًا على المقعد جوار الغرفة من الخارج، لم تسمع إلا جمل بسيطة أنبأتها أن هناك حربًا قادمة.

"لما أديك الإشارة تنفذ حالًا، تجيبه على الأرض، عايزه رماد، فاهم".

أغلقت الباب بهدوء حتى لا يحس بها أو يراها، وخفق قلبها بشدة، خشيت أن تنل الحرب هذه المرة من أحبتها.

ألا لعن الله الحرب ومن أشعلها!

فهي لم ترتح بعد من أفعال الجرار وابنته، والآن ستواجه أفعال سعيد بمفردها، بعد تخلي خالد عنها، وتهديد نواف لها.

لكنها لا تهتم بمواجهته كالعزل يكفي أن تكون ابنتها بخير، وأن يعيش خالد في سلام، حتى لو بعيدًا عنها محتقرًا إياها.

تأخر سعيد في العودة فانتهزت الفرصة وتظاهرت بالنوم، مرت فترة من الوقت حينما أحسَّت بيده تفتح الباب، ارتجف جسدها مرة أخرى، وحاولت بصعوبة التحكم في ردة فعله حينما وضع سعيد يده على كتفها ليوقظها قائلًا في رفق:

"نهلة، حبيبتي فوقي، معلش اتأخرت عليكي كان عندي شوية شغل على الموبايل، وجيبت لك غداكي معايا".

تظاهرت نهلة بالنعاس، فقالت دون أن تستدير إليه:

"شكرا يا سعيد ماليش نفس، وما تقلقش أنا أكلت ساندويتش من شوية".

أرعبها صوت صينية الطعام التي وضعها سعيد في قوة على المنضدة جواره، فاعتدلت في جِلستها ولمحت الغضب في عينيه:

"يعني اللي قاله علاء صحيح، ما بتاكليش أي حاجة جوة المستشفى وبتشتري أكل من برة، وبتحاسبي على مشروباتك هنا".

ارتسمت على ملامحه الحدة والعصبية فأمسك ذراعها قائلًا في جنون:

"شايفة مالي حرام، صح؟ وعيشتك كلها معايا غلط في غلط، تمام يا نهلة بس لازم تعرفي أن بنتك هنا في أحسن مستشفى في العالم، وإنتي معاها بفضلي وبفضل مالي الحرام، وسافرتي في الوقت الصح بفضل طيارتي الحرام، ولو كنتي استنيتي ساعة واحدة بس كان زمانك بتدعي عند قبرها، بدل ما تطولي في سجدتك وتدعي ربنا يخلصك مني".

ابتلعت ريقها في صعوبة عندما ألقى جملته الأخيرة، وتكونت قطرات من العرق عند جبينها، فمسحتها في عصبية بكم قميصها، لاحظ توترها فاستعاد هدوئه محاولًا جذبها إليه باللين:

"نهلة أنا بحبك واتأكدي أن فلوسي كلها جمعتها بتعبي وعرق جبيني، ومفيش حد أحق بيها مني، ولا حد أحق بيكي مني، أنا عارف أنك محوشة فلوس من شغلك... ملاليم بتقضي وجبتك البسيطة وطلباتك الصغيرة، وعارف برضو أنها قربت تخلص، ومالكيش منفد تاني غيري، يا ترى بقى لما تخلص هتصومي للأبد، ولا هتعلني إضرابك عن الأكل، عشان أوافق على اللي في دماغك".

اقترب منها ممسكًا بذقنها في قوة:

"طلاق مفيش يا نهلة، هروب مني على جثتي وجثتك قبلها، اليوم الوحيد اللي هتهربي مني فيه هيكون يوم موتك وموتي، مش هسمح تعيشي ولا تتنفسي مع حد غيري، أنا أقدر استعبدك أكتر وأتملك جسمك، بس زي ما قولتلك قبل كده أنا بحبك وعايزك ليَّا برضاكي، عايزك تخضعي ليَّا بإرادتك مش مرغمة مني، طلباتك أوامر وشروطك عقود بس توافقي على كلامي، كل حبايبك وأخواتك هعيشهم ملوك بإشارة من إيدك، هتملكي أي شيء عينك تقع عليه، بس تملكيني نفسك وترجعي نهلة اللي حبتها".

قال كلماته الأخيرة متزامنًا مع اقترابه من شفتيها محاولًا تقبيلها، فأبعدته عنها في سرعة، وألقت بغطاء فراشها بعيدًا ووقفت عند إحدى زوايا الغرفة قائلة:

"بنتي تقوم بالسلامة وتطلقني يا سعيد، لو عندك ذرة رجولة وكرامة مش هتقبل تعيش معايا وأنا رافضاك".

أرعبها ردة فعله إذ ألقى بصينية الطعام ومحتوياتها على الأرض، محدثًا جلبة شديدة جعلتها تنكمش في زاويتها، واضعة كفيها على أذنيها، ونهض واقفًا أمامها بجسده الضخم الذي لن تتمكن من ردعه بجسدها النحيل، رافعًا سبابته في وجهها محذرًا:

"لو فضلتي برأيك ده لحد ما تقوم دانا على رجليها يبقى الأفضل تشبعي منها، لأنك مش هتشوفيها تاني أبدًا".

قالها وأغلق الباب وراءه في عنف، تاركًا اثنين على الأرض... محتويات الطعام التي لوثت الأرضية والحائط،

ونهلة التي خارت قواها فانزلقت مكانها، وقد ضاعت مخططاتها هباءً.

***

داعبت نهلة شاشة هاتفها المحمول، بعدما أودعت فيه شريحته الأمريكية الجديدة، فتحت حسابها الشخصي على الفيس بوك، فما تبقى معها لا يحتمل إضافة اتصالات دولية، بل يكفي بالكاد لاستخدام خدمات الإنترنت، فاضطرت لإرسال رسائل نصية لمحاميها في مصر، تتبين فيها موقف القضية المرفوعة حاليًا لممتلكات أبيها، وحقه في ميراث الجرار، بعدما رفضت حقها وحق عمها بإرادتها في بعض الأملاك المشبوهة كالمصانع والشركات، وطالبت فقط بحقها في فيلا جدها، التي كتبها بالكامل بيعًا وشراءً لأبيها قبل وفاته، بالإضافة إلى بعض العمارات السكنية التي كتبها أيضًا لوالدها.

وصلتها رسائل عدة على حسابها الشخصي من مصطفى ابن عمها، يطمئن فيها على أحوالها بعد سماعه لخبر إصابة دانا ووفاة خالها وابنته، وبعد عجزه عن الوصول لمكانها خصوصًا بعد إغلاق هاتفها، فهو لا يعلم عن سفرها شيئًا، ردَّت عليه في رسائل قصيرة تطمئنه على نفسها وطفلتها واستقرار حالتها الصحية حاليًا بعد نجاح عمليتها.

قطع أفكارها صوت طرقات رقيقة على الباب، منحت الدالف الأذن للدخول، واتَّسعت عيناها في فرح، بعدما رأت ندى ماثلة أمامها بابتسامتها المعهودة وروحها الجميلة.

جلستا الاثنان على الأريكة المريحة في الغرفة، بعدما أشبعا شوقيهما بالأحضان، بدأت ندى كلامها بالاعتذار عن تأخرها في المجيء، بسبب حجوزات الطيران خصوصًا بعد كشف سعيد وجودها، وعلمه منذ البداية بقدومها لمصر، ورفضها لعرضه السفر معهم على طائرته الخاصة.

أطلقت زفرة حارة بعدما اطمأنت على دانا واستقرار حالتها، ولاحظت شرود وارتباك تعابير وجه نهلة، وكأنه لديها ما تريد البوح به، فأشارت لها في طريقة مسرحية مضحكة أن أفضي بما لديك، وبالفعل قصت عليها نهلة ما جرى منذ مجيئها، ومقابلتها لخالد وحاولت أن تتحاشى نظرات الدهشة والاستنكار المرتسمة على وجه ندى، لم تعبأ نهلة سوى لدموع صديقتها، التي خذلتها وانهمرت فاضحة مشاعرها المضطربة تجاه وجود خالد ضمن الأحياء.

مسحت ندى دموعها سريعًا وهى تنكمش في جسدها تلوذ به، فاقتربت منها نهلة في حنان، مسحت على شعرها واحتضنتها في ألم تشارك صديقتها ما تحس به.

"نهلة، اسمعيني كويس، إنتي أحق واحدة بخالد، ورغم أني مستغربة موقفه منك بس هو له عذره يا نهلة، غضب خالد منك بسبب حبه وغيرته عليكي، حقده ده وكرهه صدقيني مش حقيقي، لو عليه دلوقتي يخطفك من سعيد ومن كل الناس، ويعوضك عن حزنك واللي مريتي به، بس هو كمان له وجعه الخاص، وإنتوا الاتنين علاجكم تكونوا مع بعض، شفا كل واحد فيكم في إيد التاني".

غمغمت نهلة في حزن والدموع تعريها من تماسكها المزعوم:

"ثلاث سنين يا ندى، ثلاث سنين عايش وعارف أني بتعذب وساكت، بدوق الحزن والألم كل يوم، وفي كل دقيقة كنت بدعي ربنا أكون معاه هو وأمي، ثلاث سنين في كل يوم فيهم وجع جديد، أيام عدَّت عليَّا وحفرت فيَّا وحدة وأمل... أمل أنه يكون حي، إنتي عارفة كام مرة كنت بشوفه في أحلامي وفي تخيلاتي، وأتمنى أفضل معاه حتى لو هبان للناس مجنونة، كام مرة كنت بسأل نفسي هو فعلًا كان في حياتي حقيقة ولا دي أوهام، طيب ليه ظهر في حياتي ومات وسابني، ليه أنا اللي ممتش بداله وبدل أمي، عارفة يعني أيه أكون في السما وفجأة أقع على الأرض، أد أيه مؤلم أنك تثقي في عقلك، وعقلك نفسه بيخونك في كل لحظة".

تشنجت في ألم من خلال دموعها، وتقطعت أنفاسها في نحيب، اقتربت منها ندى تربت على كتفها قائلة:

"أنا عارفة يا نهلة وحاسة بكل كلمة وكل مشاعر بتحاولي توصفيها بس أرجوكي أتغلبي على حزنك ده وقاومي، أوعي تستسلمي لقسوة خالد وذل سعيد، واجهي خالد بكل حاجة، وما تفقديش إيمانك في أنه يرجعلك تاني؛ لأنك تستحقي إنسان زي خالد، وخالد يستحق إنسانة عظيمة زيك".

صمتت نهلة في ألم، فيكفيها جلسة واحدة مع ندى، لتشحن طاقتها وما فقدته من ثقة وإيمان داخلها، لكنها أحسَّت بأنانيتها الشديدة تجاه ندى، فمن العيب أن تظل ندى الداعمة لها وسندها الحقيقي، ولكن بقلب مكسور، ف "ندى" هي الأولى بلقب الإنسانة العظيمة التي لا تكل ولا

تمل من وقوفها بجانب صديقتها، وتمنت لو تملك قلب خالد بين يديها، لتديره في اتجاه صديقتها الوحيدة؛ لأنها تستحق أن تنل كل حب في هذه الحياة.

اندفعت دمعتان من عيني نهلة في حرارة، وهي تعض على شفتها السفلى في ألم، تأملت وجه ندى في عتاب شديد لنفسها على عجزها عن إسعاد صديقتها.

قرأت ندى ما يدور في عقلها فرفعت سبابتها في وجه نهلة محذرة إياها:

"أوعي، أوعي يا نهلة تكوني بتفكري فيَّا بالطريقة دي، أنا توقفت عن حب خالد قبل ما إنتي تشوفيه، يعني مش بسببك وخالد عمره ما شافني الإنسانة المناسبة له، وأكيد في يوم من الأيام هقابل الشخص اللي يبص لي زي ما خالد بيبص لك، ويحبني زي ما أنا من غير ما يكون حب من طرف واحد، أوعي تفكري أن سعادتك هي تعاستي، لأن ده مش حقيقي، ولأن السعادة الحقيقية يا صديقتي العزيزة مش لازم تكون في الحب، ممكن أوي تكون في صداقتنا اللي مش هتتكرر وصعب حد يفهمها أو يقلدها".

ابتسمت نهلة ابتسامة باهتة، لا تجد ما تقوله سوى الربت على كتف صديقتها في خجل، فضمير نهلة دائمًا ما سيوبخها لو لمحت البريق الخافت في عيني صديقتها، إذا ما ذكر خالد أو جمعتهما الأيام أمامها.

لكنها هي أيضًا لا تملك قرار قلبها أو التأثير عليه، فقد ربط نفسه للأبد بخالد، وسيبقى على حبه، حتى وإن فنيت الدنيا ومن فيها.

في هذه اللحظة التي كانت نهلة جالسة مع ندى يتشاركان الأفكار، كان سعيد يجلس أمام نواف في جناحه الفندقي، بعدما عثر على اسمه في سجلاته.

"والله بتعجب كيف لك عين تجي الحين لهنيه، وتستريح أمامي ويدك ملطخة بدم أخوي، أما تستحون يا أهل مصر، يا جبروتك يا سعيد، ما كفاك السجن بعد".

"إنت عارف كويس يا نواف أني ماليش إيد فيها، وإني استحالة أشارك في قتل أخويا".

"أها، يعني تقصد أن الجرار لوحده هو المتهم؟" قالها نواف في تهكم.

"مش محتاج أقسم لك يا نواف، وإنت عارف ده، أنا أخون خالد مع مراته أه، أخسره صفقة... أو أضيع عليه بيزنس، أمَّا أقتله لا، دي مش لعبتي ومش سكتي".

"ولك عين يا بجح، إنت تعترف بخيانتك مع إليزابيث النجسة بدون حياء، ما تخجل تذكر هذا، واللي أعرفه يا سعيد بك أن الفساد مو ببعيد عن القتل، كله دم وكله حرام يا محترم".

رفع سعيد سبابته محذرًا نواف في حدة:

"بلاش إنت تتكلم عن القتل يا نواف، لأنك عارف كويس زي ما أنا عارف ومتأكد أنك خططت لموت إليزابيث، حادثة العربية ولعبة الفرامل القديمة ما تعديش عليَّا بسهولة، خصوصًا اتِّفاقك مع المهندس على اليوم اللي كانت هربانة وجيالي فيه، لو هتتكلم عن الدم فبص لإيدك كويس وإنت

هتشوف آثاره واضحة فيها، العطر العربي يا صديقي ميغطيش ريحة الدم مهما غلى تمنه".

نهض نواف في غضب وزمجر قائلًا:

"اخرس يا كلب إنت، كيف تتكلم معي بها الطريقة، أني لو قتلت إليزابيث فهذا عشان هي خاينة، وتستحق الدفن حية، خانت الجلب الأبيض اللي حبها، وأعطاها اسمه وروحه، نحنا عرب بدم حامي مو مثلكم".

ثم هدأت حدة صوته قليلًا وقال:

"أني ما حزنت إلا لأجل الصبي، روحنا راحت معه، دفع خطيئة أمه من عمره الصغير، كانت أسرتهم سعيدة لحين شفناك".

ثم التفت لسعيد وقال في قسوة:

"الله يلعنك يا شيخ إنت السبب، من يوم ما شفنا ويهك في حياتنا والمصايب تنزل علينا بدون روية".

قهقه سعيد عاليًا في لامبالاة بنواف الجالس أمامه:

"أسرة سعيدة، متأكد يا نواف من ده؟ إنت فاكر فعلًا أن إليزابيث قابلت خالد صدفة، وحبته والقدر هو اللي جمعهم وتيراا را تيراا را؟!".

عاود الضحك مجددًا في غرور ثم طرقع بإصبعيه في زهو قائلًا:

"ما اتخيلتش ذكاءك محدود للدرجة دي يا شيخ نواف، كل ده مفهمتش أن إليزابيث كانت لعبتي من البداية، أنا أعرفها من قبل خالد بكتيير، تقدر

تقول أني عرفت إن خالد بيحب الصنف ده، فرميتها في سكته وعلمتها إزاي تقدر تكسب قلبه الساذج البريء".

وغمز بعينه في تفاخر:

"الظاهر أنها جينات في العيلة، وأنا أكتر واحد أعرف مزاج أخويا واللي بيجذبه، ووقتها فعلًا كل تحركاته بالنسبالي كانت معروفة ومدروسة".

اتَّسعت ابتسامته عندما ازدادت دهشة نواف أمامه فاستطرد قائلًا:

"بس إنت عارف يا نواف أننا متفقين إحنا الاتنين على حاجة واحدة... أن إليزابيث تستاهل الموت فعلًا، العاهرات دايمًا هم الطعم وكبش الأفلام يا صديقي العزيز".

"بس أنا حابب برضو أقولك على سر مهم جدًا، تقدر تقول حلاوة خروج بنتي بالسلامة".

واقترب من أذن نواف ليقول بصوت مسموع:

"إنت ما قتلتش إليزابيث زي ما ظنيت وعشت سنين في وهمك وذنبك... الحقيقة أني أنا اللي اتخلصت منها بعد تهديدها ليَّا أنها هتهرب من خالد وتجيلي بالغصب وتبوظ مخططاتي، كنت براقبك وعرفت أنك اتَّفقت مع مهندس شاطر يلعب لك في الفرامل... خطتك مهروسة أوي عندنا يا شيخ نواف متنفعش غير للأفلام الهابطة، إنتوا عرب يا باشا وإحنا فراعنة، فهنا بقى بدأت لعبتي، خدعتك عن طريق المهندس بتاعك أن خطتك اتنفذت وكله تمام، واتَّفقت أنا مع رجالتي أنهم يحطوا لها مخدر في أكلها ينيمها

وقت السواقة، لأنها ممكن جدًا ما تركبش العربية اللي حضرتك اخترتها، يعني تنام في أي عربية بكيفها وبإرادتها بس نومة طويلة شوية".

لم يستطع نواف أن يتمالك غضبه، فنهض في لياقة لا تناسب سنه، وأمسك بتلابيب سعيد يهزه في عنف صارخًا:

"شيطان إنت يا رجل، الله يلعنك دنيا وآخرة، ويش بدك منَّا، إنت مو شخص سوي، اذهب واتعالج من أمراضك بعيد عنَّا، إنت تدري ويش سويت بنا، إنت قتلت ابن أخوي روحه وقطعة منه، قتلت طفل صغير يا لعين، الله يخزيك يا سعيد، الله يخزيك، لولا العيب كنت جولت تراه في بنيتك ما سويته بحمزة، بس الصغيرة مالها ذنب هي وأمها في قذارتك".

أزاح سعيد يد نواف عنه في حدة متمتمًا في ألم:

"حمزة مش ابن خالد يا نواف، اهدأ وأبري نفسك من همه، أنا سيبتك على عماك فترة طويلة، عشان أشوفك مهزوز وأشيلك ذنبه، وأسيب ضميرك ينهش فيك شوية".

حملق نواف في وجهه غير فاهم لما يقوله سعيد، فأكمل الأخير في هدوء محاولًا تمالك أعصابه:

"حمزة مش ابن خالد لأنه... لأنه كان ابني أنا".

ساد الصمت بينهما وكأنه دهور من الصواعق، فخفض نواف نظره للأرض، وقد خارت قواه فسقط على الأريكة خلفه، يحاول هضم ما سمعه منذ قليل.

"أنا مكنتش أعرف زيك أنها هتهرب بحمزة، لأنها قالتلي بالنص أنها هتسيب حمزة لخالد، بس مستنية نتيجة تحاليله لأنه على حسب كلامها كان تعبان، واللي اكتشفته أنها كانت تحاليل DNA، للأسف معرفتش أنه ابني إلا من رسالتها الأخيرة ليَّا، اللي كانت فرحانة فيها جدًا وهي بتبشرني بالنتايج وبعتتلي نسخة منهم، وطبعًا لما هي اتأكدت أنه ابني غيرت مخططها، وأخدته معاها عشان يعيش وسطنا، أنا أول ما شوفت الرسالة اتجننت وكلمتها أتوسل ليها توقف العربية في أي مكان، وتستنى حد من رجالتي يجي ياخدها بس... بس مردتش أبدًا على تليفونها... أبدًا".

أدار سعيد ظهره له ناظرًا للواجهة الخارجية للفندق، ثم التفت ليفحص ملامح وجه نواف في شماتة قائلًا:

"عارف أيه اللي بيبرد قلبي بعد طلاق أمي وهروبها من أبويا وجوازها من أبوك، وخلفتها لسي خالد حبيب قلبها اللي فضلته علينا...".

جلس سعيد على أريكته واقترب بوجهه منه في تشفٍ وغيظ:

"نظرات القهر والذل اللي في عينيكم دي، فشلكم في كل مرة وظنكم أنكم هزمتوني، كل كسرة نفس وكل وجع قلب بيحصلكم بيهدي من وجعي وبيفرحني، الحقيقة بنبسط أوي لما أتسلى بأصحاب الضمير زيكم".

تراجع في مقعده وأراح ظهره للخلف، ثم أكمل في زهو رجال الأعمال:

"تقدر تقول ما اتعودتش أخسر في صفقة يا شيخ نواف، وأهم صفقة في حياتي كانت خالد، ما أنكرش أني حزين عشان موت حمزة، لأنه كان ابني ومن صلبي، بس الحقيقة أنا ما أتمنتش يكون لي ابن من واحدة زي

إليزابيث، ويمكن عشان كده اتلهفت في جوازي من نهلة أن يكون لي ابن منها، ولما محصلش اتجوزت غيرها وللأسف في المرتين ربنا ما أرادش... أيًا كان بقى دي إرادته أو انتقامه مني".

لمح نواف مسحة من الألم ارتسمت لوهلة على ملامح سعيد، ثم اختفت سريعًا وحلت محلها الصرامة:

"ودلوقتي مش همي أني أخلف الولد أد ما همي أن مراتي وبنتي يفضلوا في حضني وبتوعي، نهلة عندي أهم من خلفة ١٠٠ ولد".

ابتسم في خبث ثم غمز بعينه لنواف قائلًا:

"وإن كنت ناوي الحقيقة أني أخلف عيال كتير منها، نهلة دي لعنتي ونعمتي... جنتي وناري، وزي ما قولتلك القتل مش لعبتي ولا سكتي، بس لو حد فكر مجرد فكر أنه ياخد نهلة مني أنا مش بس أقتله ده أنا أمسحه باسمه واسم عيلته من على وش الأرض".

ورفع سبابته في وجه نواف قائلًا في لهجة تحذيرية:

"فاهمني يا نواف".

انتفض نواف من مكانه غاضبًا وصرخ فيه قائلًا:

"تيجي لهنيه يا كلب تهددني، وترفع سبابتك في ويهي، ما تنسى نفسك يا سعيد وتنسى أنك مو في أرضك تتحكم فيني، يكفي ما جلته اليوم، والله ما أدرك تنعم مول بعد ما درتني أعيش سنين في ذنبي، وأحمل فوق ظهري وزر مو وزري، سنين بكيت من جلبي لأجل الطفل، ظنيته من دمنا وصلبنا،

واليوم يظهر أنه ابنك، اخرج برة يا كلب وما تريني ويهك مرة ثانية، وأوعدك مني كلمة رجل ما أدرك من اليوم تهنأ مول".

نهض سعيد من مكانه مبتسمًا، ثم تمتم وهو في طريقه للخارج متهكمًا:

"هي العيلة دي معندهاش غير الكلام ولا أيه، أبعد عن طريقي يا شيخ نواف بدل ما تحصل أخوك في قبره".

وأغلق الباب وراءه في عنف، أستدار نواف يفكر في جنون في محادثتهما منذ قليل... أيعقل أن حمزة ليس ابن خالد وأن يداه بريئة من موته وأمه؟!

فتح الباب مرة أخرى بعد ثوانٍ قليلة من رحيل سعيد، فاستدار نواف على عقبيه في عنف قائلًا:

"ليش عدت يا...".

اتَّسعت عينا نواف على آخرهما فأمامه كان خالد واقفًا، ووجهه قد اكتسى بالغضب والسواد، وفهم نواف من صمته المحتقن أن خالد قد سمع كل ما دار في الغرفة منذ قليل بينه وبين سعيد... كل شيء.

***

اقتحم سعيد غرفة نهلة في المستشفى بدون استئذان، عندما تناهى إلى مسمعه صوت ضحكات عالية بالداخل، وكالعادة لم يمهل نفسه التحقق من هوية من يجالس نهلة، فأدار مقبض الباب ودخل عنوة، رفعت الفتاتان رأسيهما إليه في دهشة، وإن اختلطت دهشة نهلة بالغضب، الذي فهمه سعيد على الفور، فاتَّسعت ابتسامته مضللة طريقة دخوله:

"أهلًا وسهلًا يا ندى، زيارتك المفاجئة أسعدتنا كتير وأكيد بالأخص نهلة".

هزَّت ندى رأسها في اشمئزاز، وفي داخلها تصرخ... يا لك من كاذب، فأنت تعلم خطوة النملة قبل أن تخطوها بجوار نهلة ومن حولها.

جلس على حافة مقعد نهلة مما أدى لتلامس جسده لذراعها؛ فعادت للوراء تمنحه مساحة إضافية للجلوس، لكنه عاد ولف ذراعه حولها ليلتصق بها مجددًا.

"إنتي عارفة يا ندى أنا شكيت فعلًا أنك إنتي اللي مع نهلة جوة الأوضة، أصل ما بسمعش الضحكة دي منها غير وهي معاكي".

ألقى جملته وهو يتفرس وجه نهلة في حنان وغيرة، لكن الأخيرة سألته في هدوء مستفز:

"أومال إنت كنت فاكر مين معايا هنا يا سعيد؟!".

باغته سؤالها فتجاهله في عدم لياقة، وسأل ندى في اهتمام:

"أيه رأيك تتغدي معانا يا ندى، أنا متأكد أنك جعانة زي حالاتي، وياريت بالمرة تقنعي صاحبتك تأكل حاجة هنا بدل ما نحجز لها العناية بعد دانا".

لم يترك لهما الرد إنما أنحنى يقبل جبهة نهلة في سرعة، ثم نهض ملوحًا لهما بيده قائلًا:

"هجيب الغدا بسرعة وأجي، أنا عارف إنتوا بتحبوا تأكلوا أيه وهنا فيه مطاعم ممتازة".

أغلق الباب خلفه وترك أعينهما تقول الكثير خصوصًا ندى التي تساءلت في صمت:

"كيف الهرب منه يا نهلة وقد أحكم قبضته عليك؟

كيف؟!".

نهضت لتستأذن من نهلة في الرحيل إلى فندقها، فهي لن تحتمل رؤية سعيد مجددًا دون الحاجة إلى قتله، وعلى الرغم من ترددها لترك نهلة معه إلا أنها تعلم أنه زوجها، مهما فعل ومهما اقترفت يداه لن تستطيع هي الحول دون وجودهما معًا، ولن تستطيع أن تحمي صديقتها منه قبل انفصالها عنه.

ودعتها نهلة عند باب المستشفى، وعادت لتطمئن على صغيرتها التي تعافت كثيرًا وعلى وشك الخروج قريبًا، جلست بجانبها تربت على جسدها الصغير، لتطعمها بيدها، لثوانٍ أصابها التقزز حينما رفعت بيدها معلقة من الطعام المحتوي على الخضار واللحم المطهو، تكونت في ذهنها صورة لمصنع اللحوم الذي يمتلكه أخوالها، الآن الذي عاد للعمل وكأنه لم يحدث شيئًا، وشركة المواد الغذائية التي يمتلكها سعيد، أحسَّت أن معدتها تتقلص في اشمئزاز، نظرت لطبق ابنتها تتخيل به أجزاء من الأعضاء البشرية التي تحوم حولها الدود واليرقات، فأدارت وجهها للناحية الأخرى، وطلبت من الممرضة الموجودة إكماله لصغيرتها، وجرت في سرعة لغرفتها تفرغ محتويات معدتها البسيطة في الحمام، استلَّقت على الأرضية، وقد إصابتها حالة من تيقظ الضمير أوجعتها، أغلقت عليها الحمام ووقفت تحت الدش الفاتر تبكي في حرارة، تتلمس أن تغسلها المياه

من ذنوبها، واشتراكها في فساد زوجها، تدعو الله من قلبها أن يغفر لها ضعف مبادئها ورقة صمودها المزعوم، فهي لم تستطع التضحية بابنتها، ووافقت على شفائها بأموال حرام، وهي تعلم في قرارة نفسها أن الحرام لا يولد إلا حرامًا ألعن منه وأقبح، وهي تخشى أن تدفع دانا ثمن جرائم سعيد، وثمن تخاذل أمها وصمتها عن ذلك.

حدثت نفسها في حزن:

ـ "جنيهاتي لم تكفِ يا الله لعلاجها، فهل كنت لأتركها تموت؟ ماذا أفعل وما بيدي من حيلة؟".

ـ " ألم يقل الله يا نهلة (ومن يتق الله يجعل له مخرجا)، وإنتي انتظرتي المخرج قبل التقوى فهل يعقل؟!".

ـ "لم أستطع يا الله أن أفعلها، حالتها كانت في خطر لم يكن هناك من وقت للتفكير، لم أستطع انتظار استخارتي أحسست أن حياتها بين كفي، وأنا أضعف من أن أتخذ هذا القرار بمفردي، يكفيني أن أفرطت في حياة أمي، فكيف أكرر هذه الفعلة مرة أخرى؟ فأنا قادرة على نفسي جيدًا، أجوعها ولا أكل من حرام، أجوع طفلتي ولا أطعمها من ماله، ولكن هذا ليس بطعام أو شراب أو ملبس، إنها حياة أو موت".

"كل حرام قد بدأ من مكان ما ليس له منفذ غيره، كل حرام له مبرراته يا نهلة، فلو كان للحرام ما يساويه من حلال بنفس قدره لما اختار الناس طريقه".

صمتت أصواتها الداخلية عند تلك النقطة، فاستندت على حائط البانيو تبكي في تيه من أمرها.

لفت حول جسدها منشفة، ووقفت تجفف شعرها الطويل بالمجفف الكهربائي، شردت لحظة تذكرت فيها حياتها البسيطة قبل أن تلتقي سعيد... منذ لقائه وهي في مشكلات لا تنتهي، منذ اللحظة التي ظهر فيها في حياتها وهي لا تدري ماذا يحدث لها، لم تكن تعلم عن عالم رجال الأعمال وثرائهم الفاحش شيئًا سوى اسم سعد الجرار، المرتبط بشركاته وفيلته الضخمة التي وقفت أمامها مرتين، تشحذ عطفه وصلة القرابة بينهما.

وها هي الآن تقف أمام مرآة حمام فاخر في أفخم جناح في مستشفى عالمي، لم تحلم أن تطأها يومًا، تعيش في فيلا كالقصور، تعامل من سعيد كأنها الأنثى الوحيدة على وجه الكوكب، ولكنها ليست سعيدة بذلك بل أن أقسى لحظاتها عندما يحتك بها سعيد أو يجلس بجوارها، وكأنها ترفض وجوده في حياتها وترفض أن تكون إلا نهلة القديمة التي لا تخشى الفقر مادام يحميها من الحرام.

خرجت من الحمام تنتقي من ملابسها القديمة ما ترتديه، حينما دلف سعيد لغرفتها فجأة حاملًا بين يديه وجبات ساخنة ووراءه أحد السعاة يحمل معه الأطعمة، لمحها سعيد تلف حول جسدها منشفة الحمام البيضاء، فدفع الساعي بيده للخارج يلتقط ما في يده، ويضعه فوق الطاولة القريبة منه، في حين قفزت نهلة داخل الدولاب، عندما رأته وأغلقته عليها.

أعطى سعيد الساعي بقشيشًا سخيًّا في فرح، وأغلق الباب خلفه واقترب من الدولاب، الذي تستتر فيه نهلة وطرقه مازحًا:

"أنا مشيته خلاص اطلعي، الدار أمان".

أتاه صوتها عميقًا من الداخل قائلًا:

"لو سمحت يا سعيد أخرج برة لحد ما أدخل الحمام".

فاض شوق سعيد فلم ينتظر حتى تخرج، إنما فتح باب الدولاب وانتزعها منه بقوة خارجه، ووقف يتأملها في حب وإعجاب، حاولت نهلة أن تتملص من بين يديه، وهي تلعن غباءها الذي أخرجها من الحمام هكذا، وهي تعلم أنه لا يعرف عن اللياقة شيئًا حينما يقتحم الغرف بلا استئذان.

وضع يده خلف شعرها ونزع منه المشبك الذي يحكمه، وتركه ينسدل على وجهها وظهرها، كنهر بري أسود لم تمسه يدًا بعد، قربها منه وانحني ليقبلها في حين داعبت يده طرف المنشفة ينوي انتزاعها.

انتبهت نهلة لفعلته فتمسكت بمنشفتها، وفرت من بين يديه بفضل جسدها الصغير، وانزلقت نحو الحمام في سرعة مغلقة عليها الباب من الداخل.

ابتسم سعيد لنفسه في غرور... إلى متى ستهربين مني يا صغيرتي؟! فأنا لن يفرقني عنك سوى الموت، وهذا الأخير لن ينالني إلا ونحن معًا.

لمحت عيناه ملابس نهلة القديمة على طرف الفراش، فزفر في حدة متذكرًا أن نهلة قد تركت كل ملابسها الجديدة التي اشتراها لها منذ فترة طويلة،

واستبدلت ملابسها القديمة بالجديدة منذ عملها في دبي، التي كانت في بيت والدتها وبعض الحاجيات البسيطة التي استطاعت شراءها بمرتبها البسيط.

إن نهلة لم تستطع بعد التخلي عن شخصيتها الفقيرة، وكأنها تحبذها كثيرًا وتفضلها عن كل هذا الثراء.

"تبًا يا نهلة، تبًا يا حبيبتي البرية، ماذا أفعل لأبهرك، ماذا أفعل بعد لكي أنالك؟ لم يتبقَ لي سوى أن أشدو باسمك في الشوارع، وأمام المقاهي ممسكًا بآلتي الموسيقية... نفذت من بين يدي الحيل، ولم تتركي لي سوى اختطافك قهرًا، سأغصب نفسي عليك، فلا أملك لترويضك حاليًا سوى هذا، لن أترك لك القرار بعد الآن، سأخذك حتى ولو لم يردني قلبك".

قام في انفعال وأغلق الباب خلفه في غضب، فخرجت نهلة على أطراف أصابعها تدير المفتاح في عقب الباب، لتتنفس الصعداء وكأن بابا يفرقهما هو النجاة بالنسبة إليها.

"ولكن إلى متى... إلى متى يا نهلة؟

فسعيد لن يصبر كثيرًا، لن يمهلك الوقت مرة أخرى فهو يعد لك في نفسه شيئًا ما... شيئًا سيأسرك للأبد".

خرجت دانا من المستشفى وقد أتمَّت علاجها على خير، وبدت في صحة جيدة جوار والديها، توقفت السيارة الليموزين بهما أمام فندق ترامب إنترناشونال، ترجل سعيد من جوار نهلة وصحبها هي ودانا لجناحهم المميز، وصعد الخدم وراءهم بالحقائب.

ترك سعيد نهلة تفرغ حقيبتها التي تظاهرت بالانشغال بها، وخرج للشرفة الواسعة يجري مكالماته المهمة.

"أيوة يا مدحت، نفذ حالًا".

أغلق هاتفه وهو يبتسم لنفسه في زهو فخطته على وشك التنفيذ.

***

كي نلتقي ماذا خسرنا يا حياتي؟

من خلفنا نهر الدماء يلوثنا

لك محنتك... ولي وجع أزماتي

فهل نجتمع يومًا دون تشتتنا

فلا عتاب يسرق مني لحظاتي

ولا أحد يقتل فينا براءتنا

فهلا أجبت على تساؤلاتي

أليس هناك من طريق يجمعنا؟!

خبط نواف بيده على طاولة مكتبه في قوة وغضب صارخًا بأعلى صوته:

"ويش تجول، هاذي مصيبة، الله يحرق الفاعل ما يشوف في دنيته ولا آخرته خير، احجز لي يا بني اليوم تذكرة الرجوع، الله يستر عرضك".

زمجر نواف وهو يلقي بهاتفه في غضب:

"الكلب خلف هذا الحريق، ما في غيره، الله يحرقه كيف ما حرق مخازن الخشب، والله يا سعيد ما تكون هاذي المرة كلام وبس، إنت لن تدرنا في حالنا، وأني لن أدرك تلعب بنا، إنت أخترت يا بن الغريب فاحتمل اختيارك".

في هذه اللحظة رن هاتف سعيد فاطَّلع على شاشته ثم خرج للشرفة يستمع إلى محدثه:

"كله تمام يا سعيد بك، جبناه رماد والشيخ حجز تذكرة الرجوع".

اتَّسعت ابتسامة سعيد الجذابة لتملأ وجهه في تشفٍ، فخطته تسير كما أراد، قطعت أفكاره نهلة بدخولها للشرفة، لتستأذنه في الخروج مع ندى اليوم، تفحصها بعينيه في بطء ثم حك ذقنه يفكر قليلًا، هز رأسه على مضض وعيناه قد خرجت من محجريهما، وهو يمنحها موافقته.

رمقت ندى بطرف عينها نهلة السائرة جوارها في إشارة منها لوجود من يتبعهما، ما أن خطت الاثنتان داخل أحد المحلات التي تعلمها ندى جيدًا، حتى أشارت لنهلة بإسراع الخطى خلفها نحو المخرج الخلفي للمحل، الذي ينتهي إلى زقاق ضيق، يتم فيه وضع حاويات تشتمل على مخلفات المحل والأكياس الفارغة، تبعتها نهلة في عصبية محاولة استشفاف ما يدور في ذهن صديقتها المسرعة.

توقفت ندى على بعد شارعين، وأوقفت إحدى سيارات الأجرة، لتدفع صديقتها فيها جوارها، نظرت لها نهلة في بلاهة، فقد بدا لها وكأن ندى تختطفها لشيءٍ ما.

"يا ندى أيه اللي بيحصل بالظبط، إنتي عارفة كويس أني مينفعش أسيب دانا في وضع زي ده وأنزل، وبعدين ليه كل الهروب ده، بقى عشان سعيد بعت ورانا حارس شخصي يبقى نهرب زي الحرامية كده".

مرت عشرون دقيقة عليهما، وهما بداخل العربة لا ترد فيهم ندى على تساؤلات نهلة، حتى توقفت أمام مطعم فخم شاغر من الزبائن في مقابل الساحل، حاسبت ندى السائق، ودفعت نهلة للترجل خارجها ثم جذبتها من يدها للدخول إلى ذلك المطعم، تبعتها نهلة في استسلام حتى وقفت ندى في منتصف المكان الخالي، اقتربت من نهلة في حنان وأجلستها كطفلة في أحد المقاعد قائلة:

"استني هنا ما تتحركيش".

رفعت نهلة عينيها وكأنها تتساءل في نفاد صبر ماذا يحدث الآن يا ندى؟ لكن الأخيرة قد غادرتها لمخرج خلفي تاركة إياها وحدها في هذا المكان الأنيق، نهضت نهلة من مكانها في حيرة، انحنت لتنظر من نافذة جانبية صغيرة جذبها منظر الساحل من خلالها سحرها، فوقفت مبهوتة تتأمله، شد انتباهها دخول شخص ما للمكان، فالتفتت لتجد خالد أمامها يتأملها في صمت، فهمت الآن ما يجري ولمَ هذا المطعم قد أفرغ بالكامل، اعتدلت في وقفتها تهضم المفاجأة حينما كتم أنفاسها اقترابه منها في ثوانٍ واحتضانه لها بقوة، تسمَّرت لدقيقة ثم اندفعت الدموع من عينيها تضعفها، بدأ خالد بالكلام ليقطع صمتهما.

"ليش، ليش ما دافعتي عن نفسك ولو بكلمة، ليش ودرتني أنهرك وأزجرك وإنتي صامتة، كيف يا نهلة احتملتي غيابي وقهر سعيد وحدك، والحين تتحملين ظلمي لك وما تنطقي، ليش ودرتني أوجعك وصمتي، لو ما تحكي لي همك لمن تحكين يا حبيبتي".

لم تجد نهلة في نفسها القوة لترد عليه، فانسلَّت من بين يديه، وجلست على أقرب مقعد تتمالك أعصابها، اقترب منها في حنان، وركع على ركبتيه أمامها، رغم تألمه الواضح لضغطه على ركبته المتضررة، وضع إصبعه تحت ذقنها ورفع وجهها إليه، وقد شحب جراء دموعها، مسح دموعها بيديه وقبلها في جبينها قائلًا:

"يعني لو ما حكت لي ندى كل شي ما كنت عرفت منك مول، وكنت أظل على حالي هذا بدونك، كنت تحملتي اتهاماتي وتجريحي وما نطقتي يا نهلة".

لم يجد منها ردًا سوى دموعها، فأمسكها من ذراعيها يهزها في عنف:

"ردي يا نهلة علي، ليش استسلمتي لدور المتهمة، ردي ما تدريني لذنوبي تنهش فيني، ثلاث سنوات أحرم نفسي فيها من شوفتك... من لمستك، نعتك في وحدتي بأقذر النعوت، بس ما خففت عني شوقي ليكي ولا حبي، نار غيرتي أكلتني، وأنا اتخيلك بين أحضانه، تمنيت أقتلك ولا أراك معه، بس ما روَّمت سوى أني أعاقب نفسي على اختيار جلبي لك".

"ليش ما فيه درب يجمعنا يا نهلة، ليش صعب أوصل لك، في يدي وما أن أحكم قبضتي عليك تتفلتي مني، ليش ما نهرب معًا، أيه يمنعنا يا حبيبتي".

"أنا اللي أمنعك يا حبيبي".

قالها سعيد في تحكم وسخرية، وهو يستند بمرفقه إلى باب الدخول، نهض خالد متكئًا على ركبته السليمة في غضب، وشحب وجه نهلة وذهبت دماؤه حينما رمقها سعيد بنظرة قاسية وهو يقترب منهما، ما أن وقف خالد معتدلًا حتى أخرج سعيد مسدسه من جيبه ووجهه للأول في سخرية وغرور:

"إنت فعلًا كنت متوقع تاخدها مني، أنا منكرش أنك زي القطط بسبع أرواح، بس يمكن عشان مجربتش تموت على إيدي قبل كده، الجرار عيبه الوحيد أنه كان بيسيب وراه دايمًا نهايات مفتوحة، وعلامات استفهام... تقفيل شغله مكنش بيعجبني الحقيقة".

حك ذقنه بكعب مسدسه ثم أكمل في اشمئزاز:

"أنا كنت شاكك لما لمحت نواف، أصل أيه هيجيبه عند نهولتي إلا لسبب قوي، وأنا لما أشك يا خالد بك يا أما أموت شكي يا أموت اللي بشك فيه، والحقيقة اندهشت لما شوفت صورتك في تسجيلات المستشفى، واتأكدت أنك لسه على قيد الحياة يا خالد باشا، ولا تحب أناديك باسمك الجديد عمار خلفان".

سحب زناد مسدسه ووجهه لرأس خالد الذي استدار ليري رجاله الموجودين في خلف المطعم، فهم سعيد حركته فهز رأسه نافيًا في تهكم، وهو يرفع إصبعه لفمه قائلًا:

"شششششش، رجالتك نايمين يا خالد بك، الظاهر تعبوا من حماية رجليك العرجة".

أمسكت نهلة ذراع خالد في قوة لئلا يفقد أعصابه، ويقدم على خطوة تودي بحياته، نظر سعيد ليدها المغروزة في ذراع غريمه وصرخ في غضب:

"شيلي إيدك من عليه وتعالي هنا يا نهلة".

هزت نهلة رأسها في إصرار وتقدمت أمام خالد تحميه بجسدها النحيل، حاول خالد إزاحتها من أمامه في غضب، لكنها ألصقت قدماها بالأرض أمامه في قوة، مما زاد من حنق سعيد، فأشاح بيده الممسكة بالمسدس في الهواء قائلًا في حدة:

"بتفديه بنفسك، عايزة تموتي عشانه".

واتجه بنظراته لخالد في استفزاز واضح قائلًا:

"يا عيب الشوم على الرجالة يا خالد بك، إنت راجل عربي وبصيت لمرات غيرك وقولنا ماشي غصب عنه، قلبه مش بإيده رغم قلة مروته، بس كمان بتدافع عنك وتحميك زي العيال الخايبة اللي عمرهم ما هيكونوا رجالة، بتتحامى ورا ست يا فارس العرب".

دفع خالد بنهلة من أمامه، لكنها عادت ووقفت في المنتصف بينهما قائلة والدموع تغمر وجهها:

"لو ده هيشفي غليلك من أخوك يا سعيد، اقتله بس اقتلني قبله، لازم تعرف أن مفيش رصاصة هتعدي لخالد غير من جسمي".

أشار سعيد لأحد رجاله من خلفه ففهم الإشارة على الفور، وخرج من المطعم دقيقة ليأتي جالبًا ندى من ذراعيها، وقد كمم فمها وقيد معصميها

خلف ظهرها، دفعها أمامه لتسقط على الأرض، تقدمت نهلة خطوة لتساعدها لكن ندى هزت رأسها في عنف، فعادت نهلة لمكانها مرة أخرى في المنتصف.

هز سعيد رأسه في استسلام قائلًا:

"ما دام مصرة يا نهلة، يبقى نموت كلنا يا حبيبتي"، ورفع مسدسه في وجهها غاضبًا.

تقدم خالد فجأة وأزاح نهلة دافعًا إياها للسقوط على الأرض اتجاه ندى، في اللحظة التي هجم فيها على سعيد، واندفعت رصاصات من مسدسه لتصيب السقف فوقهما، وهما يسقطان أرضًا، زحفت نهلة بجوار ندى تفك قيدها وتنزع اللاصق عن فمها، في حين تدافعا كل من سعيد وخالد وتضاربا في قوة، نظر سعيد حوله في غضب يستشف أين ذهب رجاله الأغبياء، لاحظ اختفائهم فتلفت حوله يبحث عن مسدسه، حتى وجده بجوار أحد المقاعد، اصطدم بقبضة خالد في وجهه توقفه عن نيل مراده، رد سعيد ضربته بلكمة في معدته وقفز بلياقة نحو المسدس ظافرًا به، وما أن أمسكه بين يديه حتى اتَّسعت ابتسامته في شماتة صارخا:

"الوداع يا خالد بك".

وانطلقت الرصاصات في غزارة لتصرخ الفتاتان في ذعر، أمسكت ندى بذراع نهلة التي صرخت في جنون:

خاااااالد

****

بعد مرور ٦ أشهر...

استلقت نهلة على مقعدها أمام إحدى الشواطئ الرملية البيضاء في جزر المالديف، ودانا الصغيرة تلهو أمامها في سعادة.

شردت وهي تتذكر ذلك اليوم الأخير من حياته، ضغطت على يدها في حركة لاإرادية، وقد تشنجت أطرافها في عصبية.

انطلقت الرصاصات لتصيب جسده في براعة، وصرخت نهلة باسم خالد في لاوعي وأزاحت يد ندى من إحكامها عليها، وركضت نحوه تتبين إصاباته.

"أني بخير، ما أصابني شيئًا لا تقلقي".

تلفتت حولها لترى ما حدث، كان أمامها سعيد مسجى على الأرض، وقد تكونت تحته بركة من الدماء، نظرت خلفها في ذعر لتجد شخصًا ما يقف في مواجهة الأضواء ممسكًا بمسدسه في اتجاهها، لكنه ما لبث أن خفضه وتقدم نحوهما لترى نهلة وجهه بوضوح... أنه نواف.

اقترب نواف من أخيه يطمئن عليه ثم نهض ليقترب من جثة سعيد مشمئزًا، وكزه بحذائه ليتأكد من موته.

ارتعشت نهلة حينما وضعت يدا على كتفها، فتلفتت في حدة لتجده خالد، وقد أتى حاملًا أكوابًا من العصير لهم.

تجهم وجهه لإحساسه بأنها ما زالت تفكر في ذلك اليوم، فاقترب منها يلف ذراعه حول خصرها في حنان وحب وهمس في أذنيها قائلًا:

"ما نساكي حبي إحساس الخوف هذا اللي بداخلك، أني جوارك ومعك وما في خوف بعد اليوم وإنتي تدرين هذا".

نظرت له بعينين دامعتين، وكأنها تحمل نفسها مقتل سعيد، فقال خالد في دهشة:

"لا تجولي لي ما زلتي تحملين نفسك اللوم، أيش بك يا نهلة كل ذنوب العالم تظعيها فوق رأسك، بها الحال لن تمضي خطوة في عمرك بدون ألم، سعيد ما قتله سوى ذنوبه وحقده، أني حكيت لك ويش سوى بإليزابيث وابنه، هذا رجل ما يستحق ينذكر حتى في خيالك، عاش عمره على أمل الانتقام مني بسبب زواج أمي من أبي وتركها له، شخصيته المريضة أيش تنتظري منها... ما كان يليج به غير هاذي الموتة، ما كان يدرك مول من تحت يده إلا بموته أو موتك، وأني ما كنت أسمح أنه يمسك بسوء وأني عايش، فضل ربنا علينا أن نواف فهم خطته وسايره لينفذها، وأتى في وقته وما سافر، الله وحده اللي عالم أيش كان يصير بلاه".

حاول تغيير دفة الموضوع قائلًا في مزاح:

"نحنا الحين في شهر العسل يا نهلة هانم وما أبا أقضيه في ذكر سعيد باشا... هو عند ربه وكفى".

ثم غمز بعينيه مستطردًا:

"ولا إنتي لا تذكرين سوى الأموات، لو هذا مرادك يا ريتني كنت مكان سعيد لتتذكريني في كل حين".

وكزته بيدها في عتاب قائلة:

"اوعى تقول كده يا خالد، إنت عارف إحنا تعبنا اد أيه عشان نكون مع بعض".

اقترب منها في حب وضمها إليه قائلًا:

"نسيت أجولك يا حبيبتي أن فيلا الجرار انكتبت باسم ايمان وسلمى كيف ما أردتي، وعمك أرسلت له حقه من الأملاك مع برقية شكر منك، ووالدك الحين وصل المستشفى الخاص بعلاجه في دبي، ليكون قريب من بيتنا بعد ما ثبت بنوتك له، وباقي الميراث أودعته لأرملة زاهد كيف ما طلبتي، ونواف وندى في انتظار عودتنا بإذن المولى، أوامر ست نهلة فوق رأسنا... رغم أني زعلان منك وايد".

اقتربت نهلة منه مداعبة إياه في مزاح:

"ليش يا خالد بك زعلان مني".

ابتسم لمحاولتها تقليد لهجته وقال متصنعًا الصرامة:

"لأنك تهتمين بكل الناس حولك حتى الفقير أمام بابك، إلا أنا".

"أنا مش بهتم بيك يا خالد؟ إزاي يعني وأنا معاك ليل ونهار يا فندم".

نظرت لعيناه في حب وقالت:

"طلبات خالد بك أوامر فوق رأسنا، أطلب ما بدك، عايزني أهتم بيك إزاي يا حبيبي".

نظر لها في خبث قائلًا:

"تعي لغرفتنا وأنا أجولك".

اندفعت الدماء إلى وجنتيها على الفور، فبدتا كثمرة طماطم طازجة، مما حدا بخالد لإطلاق ضحكة عالية مجلجلة وهمس في أذنيها في حب:

يزيد الخجل جمال الورد جمالًا

فتغدو ثمار خديه لخالد حلالًا

تمت بحمد الله